
فريق
متميزون
E-BOOK
الحضارة المصرية
والحضارات الشرقية
في العصور القديمة
د.علي إبراهيم حسن

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

الحضارة المصرية والحضارات الشرقية في العصور القديمة

د. علي إبراهيم حسن

عن الكتاب..

ترتبط الحضارة ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ، حيث أنّها جزء ونتاج من التاريخ، ، ومن الممكن أن نُعرّف الحضارة بأنّها ثمرة جهود الإنسان لتحسين ظروف الحياة بشكل مادي أو معنوي. ويُمكن القول أن الحضارة اليوم لم تعد تقتصر على تناقضها لمعنى البداوة فقط، وإنما تعبّر أيضاً عن ارتقاء المجتمعات وتطورها في جوانب الحياة المادية، والمعنوية المُختلفة، كما أن الحضارة ليست حكراً لأجناسٍ مُعينةٍ فتكون قادرة على صنعها وأخرى غير قادرة، وإنما هي ملك للأمم التي تأخذ بأسباب العلم على اختلاف العصور، فالحضارة الإنسانية لم تقم بجهود أمة واحدة وإنما ساهم كثيرٌ من الأمم في قيامها، حيث إن الحضارات الإنسانية عبارة عن حلقات متصلة مع بعضها البعض.





«جميع اليونانيين الذين اشتهروا بعلمهم وحكمتهم زاروا مصر في العصور القديمة حتى يتعرفوا على عاداتها وينهلوا من علومها..

.. وإن كل الأشياء التي جلبت لهؤلاء الإعجاب كانت منقولة عن مصر».

ديودور الصقلي

كتاب «تاريخ العالم»

جـ1- القرن الأول الميلادي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



تمهيد

في أصول النقد العلمي للتاريخ

هذه مجموعة من المقالات منطلقها ومحورها كتاب «أثينا إفريقية سوداء» لمؤلفه مارتن برنال Black Athena, by martin Berrnal، والذي يقع في ثلاثة مجلدات ضخمة صدر اثنان منها. وعرض برنال موجزًا وافيًا لهذه المجلدات الثلاثة في مقال له ترجمناه هنا. والهدف عندنا هو استهلال محاولة لبناء الوعي المصري تأسيسًا على رؤية تاريخية صادقة، تسقط معها مرة وإلى الأبد أساطير وأوهام حكمت فكرنا وأطرنا المعرفية باسم علم كاذب وأكاديمية زائفة. نحن مع العلم والأكاديمية شريطة التزام صادق بمنهج البحث العلمي.

لقد صادف هذا الكتاب نقدًا من الدوائر المحافظة في الغرب لأنه ينزع عنها قناع أيديولوجيا تمجيد الجنس الأبيض. وجاء النقد حادًا من الولايات المتحدة الأمريكية التي تحلم بمجتمع أمريكي عظيم، ونظام عالمي تهيمن عليه أمريكا أي الرجل الأبيض. ورفضه اليهود أو أهملوه لأنه يضع تراث مصر الحضاري في صدارة المؤثرات الحضارية وهم القائلون اغتصابًا إنهم صناع حضارة مصر، والقائلون اعتسافًا إن الدور الأول والأساسي دور الساميين وأنهم هم وحدهم الساميون. وصادف الكتاب تمجيدًا وإشادة في الدوائر الأوروبية الداعية إلى التغيير وإلى نقد عصر الحداثة، أي نقد الغرب والاعتراف بدور الحضارات الأخرى وتعددها. ورأوا في الكتاب حدًّا فاصلاً بين عهدين في دراسة الحضارات الإنسانية.

كذلك الحال في مصر صادف الكتاب قبل صدوره بالعربية عن المجلس الأعلى للثقافة ترحيبًا واسع النطاق، وترقبًا لمحتواه، وإيمانًا بدوره في النهضة الفكرية والعلمية، والمزيد من البحث والإثراء وصياغة وعي بالتاريخ يتسم بالمصداقية والأصالة والقدرة أو المنعة في مواجهة تحديات الغزو الثقافي، التي تستهدف زعزعة أسس الانتماء سبيلاً لاطراد الهيمنة الفكرية.

وصادف كذلك هجومًا ونقدًا ولكن من نفر محدود العدد والأفق، لم يتجاوز زاده الفكري القرن التاسع عشر وإن تصدى لتعليم أجيال المستقبل وللأسف في المصريات.

علم التاريخ عندهم رواية لا دراية؛ استظهار لوقائع ووثائق مفردة، ونسوا أن المعرفة العلمية طبقات أدناها تحصيل المعارف واستظهارها، وأرقاها الفهم وبناء المفاهيم، ووضع أسس نظرية، وخلق وعي جديد متجدد دائمًا مع تجدد نهر الحياة. ولكنهم ارتضوا لأنفسهم أدنى المستويات.

وقع هذا النفر في خطيئتين: خطيئة في حق مصر، وخطيئة في حق العلم على مذبح الذاتية، وادعاء الكمال العلمي. أما خطيئته في حق مصر فهي أنه برفضه المطلق والعشوائي لهذا الكتاب، ولمثله من كتب صدرت دفاعًا عن دور مصر الحضاري الرائد باسم مصر، أو باسم سود أفريقيا، إنما يقفون، ولو من باب الجهل، في صف من زيفوا التاريخ وناهضوا دور مصر: الغرب واليهود. وإذا كان الغرب هو زعيم «الأكاديمية» على مدى القرون الخمسة الأخيرة وقد أنجز الكثير من الاكتشافات المصرية وعكف على دراستها، وأصبح دوننا مرجع المصريات؛ إلا أنه هو أيضًا الذي فرض مقدمة أو مسلمة تسلب مصر دورها الرائد. الغرب هو الذي غرس في الأذهان أن اليونان أو الرجل الأبيض مبدأ ومنطلق الحضارة العالمية ذات المسار الخطي الواحد، اليونان أبدعوا الفكر الفلسفي والرياضيات والمنطق وعلوم البرهان. ويكفي أن نقرأ عبارة سير «توماس هيث» التي تلخص رؤية الغرب التي تدرسها جامعات الغرب ومصر. يتساءل هيث في كتابه العمدة «الرياضيات عند الإغريق»(([1])) «ترى ما هي تلك الملكة الخاصة التي تميز بها الإغريق في مجال الرياضيات؟ ويجيب في ثقة، إن عبقريتهم الخاصة بالرياضيات لم تكن سوى وجه آخر لعبقريتهم الفلسفية... «إن الإغريق دون الشعوب القديمة جميعها، توفر لديهم حب المعرفة من أجل المعرفة ذاتها.. والحقيقة الجوهرية أن الإغريق سلالة مفكرين».

هذا الكلام يراه المعارضون، ومن أسف أن أحدهم أستاذ مصريات بالجامعات المصرية، كلامًا علميًا أكاديميًا: «شعب معجزة وجنس أرقى، أبدع وحدة الفلسفة والرياضيات والعلوم والمنطق من لا شيء، ولأسباب غير مفهومة لا نجد لها تفسيرًا علميًا». ونقبل ذلك باسم العلم. والهدف الخفي سلب مصر دورها الحضاري وسلب الحضارات الأخرى، بابل، والهند، والصين.. وغيرها أي سبق حضاري. ترى إن لم يكن هذا اغتصابًا سافرًا لحقوق الشعوب في حضاراتها فماذا يكون؟ وبماذا نصفه؟

ونجد من مفكري الغرب من هو أقل غلوًا وتطرفًا مثل «فارنختون» في كتابه «العلم عند الإغريق» (Greek Science Pelican 1952) يقول: إن الإغريق أفادوا من حكمة شعوب الحضارات المجاورة وخبراتهم العملية: الحيثيون والفينيقيون، والعبرانيون، وأيضًا المصريون. هنا دخل العبرانيون عنصرًا رئيسيًا مؤثرًا في الحضارة، كيف؟ ولمصلحة من؟ والمصريون في ذيل القائمة! لماذا الصمت التام والمريب أحيانًا؟ أو لماذا ذكر مصر على استحياء عند الاعتدال؟

ويقول أرنولد ريمون في كتابه الصادر عام 1927 «العلم عند الإغريق والرومان في العصر القديم» ما يلي:

«بالمقارنة بالمعارف الخبرية المتناثرة التي بذلت شعوب الشرق جهودًا مضنية لجمعها على مدى قرون طويلة، يؤلف العلم عند الإغريق معجزة حقيقية بكل معنى الكلمة»!

ترى هل تفسير أحداث التاريخ، ونشأة وتطور الحضارات بالمعجزة كلام علمي أكاديمي؟ أم أن هناك مساحات فارغة، صامتة بحاجة إلى من يستنطقها بناء على تحليل عقلاني نقدي، وشواهد علمية من واقع الإنجازات الحضارية القديمة؟

ويتفاقم حجم الخطيئة ضد مصر، إذ تدرك ما يفيده اليهود من صمت الصامتين، ومن طمس الحقيقة بلسان المعارضين، وذلك حين نعرف أبعاد دور اليهود في محاولاتهم المتكررة منذ نشأة تاريخهم، لاغتصاب تاريخ مصر الحضاري، والادعاء بأنهم هم صناع حضارة وادي النيل. وكتبوا في ذلك ابتداء من «يوسوفوس» وحتى اليوم عند «فيلايكوفسكي» و«دافيد رول». ومن ثم فإنه حين يصمت أساتذة المصريات عن هذا الاغتصاب ويتصدون لكل من يتحدث عن دور مصر الحضاري، فإنهم بذلك إنما يدعمون الخصوم ويمهدون لهم الأرض، إذ يتركون الوعي المصري بالتاريخ الاجتماعي فارغًا من حيثيات دوره الحضاري، ويدَّعون أن كتابات المنصفين لدور مصر شابتها أخطاء هامشية أحيانًا لا تمس صلب الموضوع فيهدمون القضية بكاملها.. يقفون عند أدنى السفح، ويطالبون الغير ببلوغ القمة، عابوا عليه الخطأ فلفظوه ونسوا أنهم وقعوا في الخطيئة فباتوا أحق بأن تلفظهم مصر.. هم براء من الخطأ.. نعم لأنهم لا يعملون.

أما خطيئتهم في حق العلم فهي تقاعسهم عن فهم معنى النقد العلمي وقواعده، عند نقد كتاب «برنال» أو ما شابهه وتخلفهم عن فهم تطور علم التاريخ، وهم أساتذة له بحكم المهنة والوظيفة، وإغفالهم لمدارس الفكر الحديث في العالم أو جهلهم بهذه المدارس التي أسهمت بدور فعال في فهم الخطاب الاجتماعي على مدى العصور المختلفة، وتشكل أساسًا للنقد.

نسى هذا النفر في نقده لكتاب «برنال» الذي لم يقرءوه أن النقد العلمي هو الوجه الآخر لمنهج التفكير العلمي؛ وأن النقد العلمي بهذا المعنى بمثابة التغذية المرتدة في علم الحواسب، وفي وظائف الجهاز العصبي الراقي، أعني المراجعة الدائمة وتأكيد الصواب، والكشف عن مواقع الخطأ والعمل على تصويبه في حركة ذهنية جدلية مع العمل، ومع الواقع وبذا يدعم مسيرة المعرفة العلمية في حركتها الارتقائية. ولكن حين يكون العلم عند البعض استظهار وقائع فسوف ينصب على الشكليات والحرفيات، ويغفل العلاقات والنسيج البنيوي لها، وديناميات‌ها في بعد الزمان.. وإذا نقد اليوم شأن نقد القرون الماضية كلمات مكررة.

ولهذا نقول، أو نضيف: إن من شروط النقد العلمي حداثة الفكر أو تحديثه.. وتصدق أهلية الناقد بفضل تحصيل الجديد من مدارس الفكر، ومن نظريات سواء عن النص، وهل ثمة شيء اسمه النص في ذاته، أو الوثيقة أو الأثر؟ وعن علاقة النص أو الأحرف المكتوبة بالمتكلم وبالقارئ، وعن النص وعلاقته بالأيديولوجيا؟ وهل ثمة نص موضوعي أم أن النص نوع من الخطاب ووعاء للذاتي والموضوعي معًا، فالعلم والعالم كلاهما مرتبط بواقع وبقضايا الواقع بامتداده الزماني؛ ومهمة الناقد والباحث هي التحليل والتفكيك للكشف عن آليات النص وديناميات وتفكيك كتابة التاريخ إلى أبنية، وكشف مظان الهيمنة والإطار الثقافي الحاكم الذي يصنع قطب الهيمنة ومجالها، وأيضًا كشف مظان الإغفال ومساحات الصمت في التاريخ وتحليل ذلك لبيان أسبابه، وخفاياه الأيديولوجية، واستنباط المفاهيم النظرية لأبنية التاريخ، وتجاوز ذلك لصناعة أو صياغة مفاهيم جديدة وأطر ثقافية. وبذلك تتجدد نظرتنا إلى التاريخ. ومن هنا نقول إن كتاب التاريخ شأن غيره، هو رسالة بين أطراف عبر نص في مرحلة زمنية وظروف أو شروط بيئية. وهنا يأخذ معنى موضوعية النقد بعدًا جديدًا يتجاوز، وإن تضمن، التطابق ليشمل الموضوع أو الرسالة المعلوماتية، ودورها وفعاليتها باعتبارها مركز الثقل ومحور النقد دون الهوامش والقشور، وهنا مرة ثالثة يكون الناقد موقفًا.

وفات هؤلاء أيضًا أنه لم يعد هناك علم اسمه علم التاريخ فقد تغير العلم منهجًا ومنظورًا عما كان عليه حتى منتصف القرن العشرين مع التحولات والبحوث، التي زخر بها مجال البحث العلمي منذ نهاية القرن التاسع عشر، وعلى مدى القرن العشرين ومع تطور مناهج البحث، ومنجزات علوم الاجتماع والأنثروبولوجيا والحضارات والثقافات المقارنة وسوسيولوجيا المعرفة.. إلخ.

وأصبح الاسم الدال على طبيعة المبحث، ومنهجه هو علم التاريخ الاجتماعي، بمعنى أن التاريخ لم يعد رواية وقائع في ترتيب زمني بل دراسة تحليلية كاشفة عن مجتمع إنساني، يتحرك في الزمان بأطر ثقافية وفكرية في علاقة مع مجتمعات أخرى، ناهيك عن العلاقات الداخلية أيضًا والبينية وتفاعلها معًا ليصنع هذا كله ظاهرة موضوع الدراسة، هي ظاهرة علم التاريخ الاجتماعي. لذلك أصبح الباحث التاريخي أو عالم التاريخ يسمى المؤرخ الاجتماعي. ويعني هذا أن عالم التاريخ الاجتماعي يئد نفسه علميًا إذا اقتصر منظوره على واقعة أو وقائع التاريخ كمفردات مثلما كان الحال في عصر ازدهار المدرسة الوضعية في القرن التاسع عشر أو أيام المؤرخين القدماء، وإنما يلتمس المؤرخ الاجتماعي العون من نظريات، ومنجزات العلوم الأخرى، ذات الصلة حتى يتسنى له صنع المفاهيم، ووضع أسس نظريته وصياغة منظوره. إنه بحاجة إلى علوم المجتمع واللغة والصوتيات والنفس.. إلخ. تتداخل جميعها

لتصنع منهجًا متكاملاً للبحث. ولهذا أيضًا لم يعد علم التاريخ الاجتماعي جهد فرد بل جماع جهود وحصاد عمل فريق، حيث يلتمس الباحث معلوماته من مصادر عدة غير التاريخ بالمعنى التقليدي وحده.. هذا أو الحياة مع أهل الكهف، واتهام الجادين بعدم التخصص.

من هذا المنطلق جاء اهتمامنا بكتاب «برنال» «أثينا أفريقية سوداء» وبغيره من دراسات عنيت بالكشف عن مساحات الغياب في التاريخ المصري، ومعنى هذا الغياب وأسبابه. وحيث أن القضية مصرية ومصيرية على طريق نهضتنا بوعي تاريخي صادق، فإننا نحرص على أن نقدم جميع الآراء ذات الأضواء الكاشفة لنقدمها، لا في صورة صماء بل لتكون غذاء عقل ناقد، وبناء مفاهيم تصنع إطارًا ثقافيًا لحياتنا الناهضة. وهذا ما يعجز عنه من تربوا على عادة استظهار الوقائع، وهي عادة تنمي طابع الكسل الفكري، ومن ثم تقتل القدرة على الفهم وإبداع المفاهيم. ولعل هذا هو السبب في أنهم عاطلون من الإنتاج، عازفون عن أي كتاب يفرض عليهم عناء البحث والإثراء بالجديد، وإنما يلتمسون دائمًا وأبدًا من الغير، لا من أنفسهم، كتابًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولكن في مجال البحث العلمي وصراع الثقافات وتناقض مصالح المجتمعات، ومقتضى ديناميات حركة المجتمعات وهي أبنية من بشر يفكرون ويصوغون أطرًا ثقافية.. في هذا السياق لابد وأن نتقبل الوافد والموروث بعقل ناقد، ووعي بقضية قومية، وإيمان بأن الفكر أو التفكير ليس ترفًا بل عناء ومعاناة وحركة.. الفكر والفعل معًا. وبذا نرتقي سلم المعرفة، ونكون من أهل القمة بدلاً من البقاء عند أسفل السفح، كلام ولا فعل؛ فإن عروق الذهب مطمورة دائمًا في الرغام، مخلوطة بالشوائب يكد الرجال أولو العزم لاستخلاصها وتحظى بها النساء ذهبًا خالصًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الأول

أثينا

إفريقية سوداء

منذ الأربعينيات والعقل الأوروبي يراجع ناقدًا نفسه وقد انحسرت هيمنته وأخذ يتساءل: هل استقال العقل الأوروبي عن دوره الحضاري؟

ومنذ الستينات تفجر بركان الغضب، وشملت الأزمة العقل الغربي بعامة، واهتزت مقولات رسخت على الساحة الفكرية زمانًا تجاوز القرنين. وبدا أن التاريخ الذي رسم مساره «هيجيل» ليس هو الخطاب الصحيح، وظهرت اليابان وبلدان العالم الثالث على السطح بثقافاتها وتطلعاتها وجهودها باحثة عن هويتها وتاريخها، ناقدة وناقضة مقولات الغرب، وبدت حضارات هذه الشعوب بتعددها الخصب المتكامل، وبعمقها التاريخي العريق، خطابًا إنسانيًا جديدًا، وقوة دافعة إلى نهج مغاير في النظر والبحث، وإلى منهج جديد في المعرفة.

وتعددت البحوث والدراسات الفكرية والفلسفية في محاولات نقدية وتصويبية للعقل.. عقل عصر التنوير الأوروبي.. ولمعت أسماء، وسطعت تيارات فكرية، وسادت نظريات ومناهج بحث كاشفة عن دور الأيديولوجيا في العلوم الإنسانية والطبيعية معًا وانحيازها الخفي أو السافر دفاعًا عن ثقافة الغرب، وهيمنة عقل الغرب. وتجسد هذا الانحياز في نظريات وصفت بالأكاديمية حدثتنا عن العرق الأسمى، والعقل الأرقى، وأن لهما الحق بالوراثة والطبيعة في السيادة على من هم دونهما.. وهو ما يعني في النهاية سيادة الغرب عقلاً وعرقًا على العالم أجمع لأنه الأدنى.

وارتدينا جميعًا قناع الأيديولوجيا الغربية زمنًا، وكأن فروضها من حيث لا نعي، مسلمات تصوغ رؤيتنا للحياة والتاريخ.. وكتاب «أثينا أفريقية سوداء» هو واحد من تلك الجهود التي ناهضت هذه الرؤى الموسومة بالأكاديمية، ويؤكد صاحبه، مع أقرانه، أن العلوم ليست بمنأى عن الأطر الذهنية والاجتماعية السائدة والحاكمة للفكر والمجتمع.

مؤلف الكتاب «مارتن جون برنال»، إنجليزي المولد والنشأة والتربية.. أمريكي الإقامة، هو «ابن جون برنال» العالم الإنجليزي الذي اشتهر بمؤلفاته في فلسفة تاريخ العلم وفي الفيزياء والحضارات، وهو حفيد عالم المصريات «آلان جاردنر» الذي عنى عناية فائقة بدراسة تاريخ مصر القديم واللغة المصرية القديمة ووضع قاموسًا لها. تمرس «مارتن برنال» على الدراسات

الصينية، واهتم بدراسة ثقافة بلدان شرق آسيا. واللافت للنظر هنا أن الانفتاح على الحضارات المختلفة واستيعاب ثقافتها من منطلق رؤية أو فلسفة إنسانية، أفضى إلى نظرة نقدية أكثر رحابة وموضوعية على الإنسان وتاريخه، وإلى مسارات الحضارات وتفاعلاتها. هكذا كان الحال بعد اكتشاف اللغة السنسكريتية، أو بعد اكتشاف حجر رشيد، أو بعد أن احتلت بلدان شرق آسيا وبلدان أفريقيا مكانها البارز على مسرح الأحداث العالمية نضالاً وطنيًا، وبعثًا ثقافيًا، وتحديًا اقتصاديًا.

يتألف الكتاب من ثلاثة مجلدات تحمل عنوانًا رئيسيًا هو «أثينا السوداء- الجذور الأفريقية الآسيوية للحضارة الكلاسيكية» صدر المجلد الأول في 573 صفحة عام 1987 عن دار نشر Rutger; University Press; New jersey وعنوانه الفرعي «فبركة» أو اختلاق الإغريق القديمة 1785- 1985.

ويقع المجلد الثاني في 738 صفحة، وصادر عام 1991 عن دار نشر Free Association Books; London. ويحمل عنوانًا فرعيًا «البينات الأركيولوجية والوثائقية». والمجلد الثالث تحت الطبع وهو عن الفلسفة والعقائد.

يمايز «برنال» في دراسته النقدية عن الكلاسيكيات بين نموذجين حكما الإطار الفكري والقيمي لأوروبا في حقبتين زمنيتين مختلفتين ولكل منهما دلالته ومظاهره ومقوماته:

1- النموذج القديم؛ ويعني أن اليونان مشرقية تقع على تخوم حضارة ثقافية مصرية سامية.

2- النموذج الآري ويعني أن حضارة اليونان أوروبية الأصل والمنشأ والمسار. ويوضح المؤلف كيف أنه مع النهضة الأوروبية، ثم التنوير سعت أوروبا إلى إثبات ذاتها وتفوقها وقيادتها دون منافس. كما عمدت إلى تأويل التاريخ على نحو منحاز؛ والزعم بأنها هي مهد الحضارة التي أنشأها الجنس الآري السيد، وأن العقل الأوروبي عقل متميز، وأنه أوروبي بالأصالة وليس ثمرة حوار أو تلاقح بين الحضارات.

وينقسم النموذج الآري بدوره إلى قسمين:

(أ) النموذج الآري العام أو الرحب، وقد ذاع في مطلع القرن التاسع عشر، وأنكر التراث القديم الذي يعترف بأثر المصريين على الإغريق، وإن قبل القول ببعض الأثر للفينيقيين. وقيل آنذاك بوجود عرقين رئيسيين أو سيدين Superior Races هما الآري والسامي، وأنهما في تفاعل مستمر. وأعطى الساميون- وهم هنا الفينيقيون- للعالم الدين والشعر؛ وأعطى الآريون للعالم الشجاعة والديمقراطية والفلسفة والعلم... إلخ ويوضح المؤلف في أكثر من

مكان دور اليهود لإبراز هذا النموذج الآري العام لينكروا دور مصر، ويثبتوا دور الساميين أي الفينيقيين أي اليهود في التحليل النهائي وإخراج بقية الساميين، ولكن «برنال» يرفض هذا النموذج وإن اعترف بدور الساميين بالمعنى العام الشامل لكل السلالات، ويدعو إلى النموذج القديم.

(ب) النموذج الآري المتطرف وظهر مع نهاية القرن التاسع عشر، وأنكر تمامًا أي تأثير للساميين وللمصريين على السواء، ويقضي بأن هناك جنس متفوق Master Race واحد فقط.

وأقامت أوروبا رفضها للنموذج القديم، وزعمها بنموذج واحد أسمى، هو النموذج الآري، على أساس من عقيدة رومانسية، إثنية أي عرقية، وتراتب هرمي للأجناس، حيث يحتل الجنس الآري موقع القمة والصدارة والرفعة والأصالة الحضارية.

يناقش المؤلف تلك الافتراضات الموسومة بالأكاديمية عن تاريخ اليونان قبل العصر الهلليني، موضحًا أن بها بعض الصواب، ولكنها ليست صوابًا كاملاً، ومن ثم يحاول تفكيك تلك الرؤى وتحليلها في ضوء معطيات علمية جديدة عن واقعات مادية في تاريخ اليونان، وشهادة مفكري وفلاسفة الإغريق وكتاباتهم؛ وكذلك واقعات تاريخ مصر وشرق المتوسط. ويدعم «آراءه» بمظاهر التطابق والتماثل والتوازي من خلال عمليات تحليل للغات وللآثار الفنية والدينية، ويتجاوز مظاهر التماثل إلى مظاهر التباين والتناقض؛ ويفسر أسباب هذا وذاك على النحو الذي يدعم نظرته وتفكيره، وما هنالك من مساحات غير محسومة في الرأي النقيض.

ويعقد المؤلف مقارنته بين النماذج الثلاثة على أساس من أسباب جوهرية تتعلق بأصل الزعم ومصداقية أصحابه وأسانيدهم في ضوء الوثائق والأركيولوجيا، واللغة، وأسماء البلدان والمواقع الجغرافية والأسماء الدينية والشعائر والآلهة، وأبطال وأحداث الأساطير.

ويؤكد «برنال» أنه إذا ما صح الغرض الذي انطلق منه والذي تدعمه دراسات أخرى، عزفت أجهزة الإعلام الأوروبية عن تسليط الأضواء عليها لأسباب أيديولوجية، فإن هذا يعني ضرورة أن نعيد التفكير في أسس الحضارة الغربية؛ وفي التسليم بدور النزعة العرقية الأوروبية في كتابة التاريخ، وفلسفة التاريخ.

يكشف «برنال» أن النموذج الآري مستحدث ومصطنع قبل القرن التاسع عشر، وأنه حصاد قرن سابق من الفكر العرقي المنحاز، زعم أصحاب هذا النموذج ودعاته أن أوروبا هي العالم، وأن العقل هو العقل الأوروبي، والحضارة هي أوروبا مهدًا وموطنًا، وأن الشمال أفضل من الجنوب، والمتأخر

في التاريخ أفضل من المتقدم عليه في الزمان، وسادت أوروبا موجة عاتية من الإثنية والعنصرية جللتها نزعة رومانسية تمجد الشمال وخصوصياته.

ويفيد هذا الرأي أن النموذج الإرشادي Paradigm أو النموذج القياسي للسلالات، يقضي بأنها غير متكافئة فيزيقيًا وعقليًا، وأن لكل سلالة تاريخها المتمايز غير المتماثل أو المتداخل، والذي يبرر وضعها التاريخي تساميًا أو تدنيًا، ومن ثم من الخطأ امتزاج الأجناس. وأن المدنية المبدعة الخلاقة يبدعها جنس نقي متميز.

وبذلك غير مقبول الزعم أن الإغريق نتاج مزج حضاري بين ما هو أوروبي وما هو أفريقي أو سامي أحيانًا، ثم التأكيد بعد هذا على أن الحضارة لها مسار خطي واحد أوحد. واتساقًا مع هذا الزعم عمد الباحثون الأوروبيون إلى إغفال أمر وأهمية اكتشافات كثيرة تناقض رأيهم، ومن ذلك اكتشاف «شامبليون» لحجر رشيد الذي أغفلوه ربع قرن بغية إخفاء دور مصر انحيازًا لموقف عنصري معاد.

أثار الكتاب ضجة في الغرب، وإن لم يكن هو الأول في هذا الاتجاه خلال النصف الثاني من القرن العشرين! إلا أنه الأعمق والأشمل، فقد سبقته كتب أخرى معاصرة من بينها كتاب «التراث المسروق- الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة» تأليف المفكر الأمريكي جورج جيمس والذي ترجمناه إلى العربية وصدر عن المجلس الأعلى للثقافة في مصر، وكتاب «شيخ أنتاديوب» بعنوان «الأصول الزنجية للحضارة المصرية» والمؤلف مفكر سنغالي... ولكن كتاب «برنال» أحدث دويًا وصدى واسعًا في الأوساط العلمية والسياسية، وتباينت ردود الفعل، فهناك من أنكره وشدّد عليه النكير باسم الأكاديمية حينًا، لأنه لم يصدر عن الجامعات الكبرى، وصاحبه ليس من أهل الاختصاص المعتمدين، وهناك من هاجمه لاعتبارات سياسية ظاهرة، وهناك على النقيض من أثنوا عليه ورأوه حدًا فاصلاً في تاريخ دراسة الحضارات الإنسانية في تعدد منابعها وتفاعلها، حتى لنجد من يقول في كتب مرجعية هامة عبارة «قبل برنال وبعد برنال..».

وانعكس هذا عندنا في مصر. إذ نجد من توجس منه شرًا وظنه حيلة صهيونية تروج لفكر إسرائيلي خاصة وأن إسرائيل أو الصهيونية العالمية، فكلاهما سواء، تلقي بثقلها في مجال التلاعب بالفكر العربي والعالمي، وصناعة وعي تاريخي من خلال تزييف فاضح للتاريخ المصري القديم تحديدًا. ولكن الملاحظ أن الأوساط الصهيونية روجت لكتابات عديدة تدعم في سفور أغاليطهم دون أن يتصدى أحد من الأكاديميين والمختصين العرب لتفنيد مقالاتهم. وإذا كانت صناعة التاريخ أعني كتابته وفق الهوى، وتزييف وقائعه حسب إطار أيديولوجي، هي صناعة إسرائيلية بامتياز بدأت مع التوراة التي هي رواية

لتاريخ مصطنع زائف عن شعب الله المختار كذبًا وعن شعب مصر حضارة وتاريخًا وقومًا وحكامًا، إلا أن الصهاينة ألقوا بثقلهم كبيرًا في العصر الحديث، وتتابعت كتب تحمل صفة الدراسة الأكاديمية صادرة عن جامعات عالمية تدعم، وحكوماتهم، الرؤية الصهيونية لتاريخ مصر.

ومن أسف استطاع الصهاينة أن يصوغوا الذهنية الأكاديمية والذهنية العامة فيما يتعلق ببعض قضاياهم، وأطردت جهودهم أكثر وأكثر لفرض رؤية جديدة بديلة عن تاريخ مصر القديمة، وعن تاريخهم تتفق وأيديولوجيتهم. وليس ما أصاب «روجيه جارودي» في فرنسا ببعيد فقد هاجمته أوساط سياسية «وأكاديمية» وعامة، لأنه قال «لم يكن اليهود وحدهم ضحايا النازي»... وهذه حقيقة عاشها الناس. ولكن هؤلاء الضحايا جميعهم ليسوا شيئًا قياسًا إلى أبناء شعب الله المختار... الضحية هم من يحملون في دمهم القبس المقدس وحدهم، أما غيرهم فإنهم لا يستأهلون الذكر.

ربما لم تهاجم الصهيونية صراحة «مارتن برنال» ولكن هاجمته أوساط مشهود بولائها ودعمها للصهيونية ذكرنا طرفًا منهم في كلمتنا «أثينا أفريقية سوداء منطلق مواجهة». وعمد أفراد عرب ومن بينهم كاتب مصري معروف بانحراف اتجاهه ومقيم خارج مصر، إلى إعادة تأويل وتحريف كتابات «برنال»، وذلك بعد أن اتجهنا في مصر إلى ترجمة الكتاب والترويج لدور مصر الحضاري في التاريخ، ولكن هذا الكاتب أسقط صفة مصري عن الحضارات المؤثرة في شرق المتوسط واليونان، وحذا حذو الصهاينة بأن قنع بصفة الساميين، إذ اكتفى بأن قال «برنال» يؤكد دور الساميين والشرق في حضارة اليونان، وبذا يحجب اسم مصر.

هذا على الرغم من أن «برنال» تحدث بإفاضة عن مصر، كما تحدث أيضًا عن الساميين. ولكنه حين يتحدث عن الساميين فإنه لا يقصد اليهود وحدهم وإنما يستخدم المصطلح بمعناه اللغوي أعني سكان شرق المتوسط بأعراقهم المختلفة، وهذا باعترافه هو في حوار دار بيني وبينه إذ سألته مباشرة عما يعنيه، علاوة على مدلول نص الكتاب والإفاضة في الحديث عن مصر ودورها كقوة عظمى في تاريخها القديم، لها الهيمنة على شرق المتوسط واليونان وغيرهما، وأنها المنبع والمنهل.

ونورد فيما يلي بعض العبارات التي أثبتها في سياق العرض الموجز لمجلداته الثلاثة، والذي نقدمه هنا، وهي عبارات ربما تشهد ببراءته من الانحياز إلى الصهيونية. إنه يقول مثلاً حين يهاجم النموذج الآري العام المنحاز للرجل الأبيض والذي قبل الساميين فيقول: وينكر هذا النموذج التراث القائل إن المصريين أثروا في اليونان القديمة، وإن أقرَّ بذلك بالنسبة للفينيقيين في الجانب الغالب منه. هذه الإضافة، أعني إضافة الفينيقيين هي لصالح اليهود

الذين يقولون: «إن الفينيقيين هم اليهود». ويقبل «برنال» ذلك ويرى «برنال» أن هذا النموذج الآري العام أسهم في صنعه اليهود بحيث يسمح لهم هم بدورٍ في تاريخ الحضارات وينكرونه على المصريين، بينما يؤكد «برنال» أولاً وأساسًا دور مصر. إن اليهود ضد النموذج الآري المتطرف الذي ينكر هذا الحق على غير الآريين مصريين أم ساميين بينما النموذج الآري العام يضيف الساميين، وهي الصفة التي نجح اليهود في جعلها مرادفًا لليهود على سبيل الحصر، وينكر هذا النموذج الدور الحضاري للمصريين.

ويقول «برنال» عن المروجين لعائلة لغوية هند أوروبية وعن عرقين لهما السيادة: «الآري والسامي». يقول ناقدًا: «ويسمح هذا في مجال الدراسات الكلاسيكية بقبول أسطورة الدور الفينيقي في اليونان القديمة. والحقيقة أن شهرتهم إنما ظهرت إلى حد ما لسد الفراغ الناجم عن غياب المصريين».

إنه يرفض بشدة القول بعرقين سيدين: الآري والسامي، وتغييب مصر، ويصف إسرائيل بقوله: «إسرائيل التي اعتبرها الغرب، «المخفر الأمامي للحضارة الغربية» وهو، أعني «برنال» الرجل المعادي للهيمنة الغربية في كل صورها الفكرية والاقتصادية والعسكرية، وناضل ضد هذه الهيمنة. ويوضح كيف أن قيام إسرائيل وقبول اليهود باعتبارهم أوربيين أدى إلى التراجع عن النموذج الآري المحدود أو المتطرف واستعادة النموذج العام الذي يسمح بدور حضاري للفينيقيين، ويقول: «إن دعاة النموذج الآري العام، والذي قاده أساسًا باحثون يهود، موالون للصهيونية أو مناهضون لها، بدءوا يكسبون أرضًا وسوف ينجحون يقينًا مع نهاية هذا القرن.

ولعل في هذه العبارة ما يوحي بأن الدور اليهودي النشط حاضر وممتد. ولكن للأسف فإن الدور المصري لإثبات الحق هو الدور الغائب. ولكن «برنال» يدعو إلى النموذج القديم الذي لا ينكر دور الساميين وإنما يؤكد الدور البارز للمصريين. وها هنا فارق كبير، وإن كان الدور المصري لن يتأكد إلا بفضل نشاط المصريين.

ولندع القارئ يطالع بنفسه العرض الموجز الذي كتبه «مارتن برنال» لكتابه الهام والضخم.

والكتاب يدخل ضمن تيار فكري غربي متمرد يعبر عن ثورة مضادة ناقدة بدأت منذ الخمسينات واختمرت، واكتسبت قوة دفع ودعم جديدة يسبب مشكلات اجتماعية وسياسية وفكرية في الغرب عبرت عنها مدارس فلسفية جديدة. إنها أزمة مسلمات فكرية عاش عليها الغرب الحديث وأطاحت بها الأحداث. وإن «برنال» إذ يؤلف هذا السفر الضخم إنما يكتبه من موقعه كمواطن غربي مناهض لأسلوب الهيمنة، ومشارك مع تيارات الفكر الأخرى

في نقدها لعصر التنوير وللعقل الأوروبي وللحداثة الأوروبية، ويسهم في تقويض مسلمة زائفة روج لها الغرب وهي أن الحضارة أوروبية وأن الفلسفة يونانية أي أوروبية الأصل والمنبع. وعبر المؤلف عن ذلك تحديدًا في عبارة موجزة في نهاية مقدمة الجزء الأول إذ قال: «هدف الكتاب فتح مجالات بحث جديدة لذوي الأهليات الأفضل والأكثر تميزًا، ثم الحد من غطرسة الثقافة الأوروبية».

وفي حدود هذا الهدف نحن معه ولكن بعقل ناقد أيضًا في إطار رؤية استراتيجية لنا، وولاء عقلاني لتاريخنا. لقد عانينا، ولا نزال نعاني من غطرسة الثقافة الغربية، وكانت لها تأثيراتها السلبية والمدمرة. ومصر تحديدًا واجهت انتهاكات متعاقبة على مدى أكثر من ألفي عام مع تعاقب الغزاة، من الشرق والغرب، وعمدوا جميعًا إلى إهدار ثقافتنا، وقد آن الأوان لكي ننهض دفاعًا عن وعينا التاريخي الصادق.

لذلك نحن مع المؤلف في محاولاته المضنية لإثبات دور مصر التاريخي فهذا حقنا السليب، ولكن بقي أن ندعم نحن بجهودنا. وإبداعاتنا مقومات صدق هذه الأطروحة، فيما يخص مصر، وإثرائها وغرسها ضمن وعينا التاريخي، ونصحح الأخطاء التي وقع فيها، فهذه ليست مهمة «برنال»، بالنيابة عنا، بل هي مهمتنا ورسالتنا المقدسة بالأصالة.

وإذا كان اليهود، كما أوضح، «برنال»، نجحوا في أن يجعلوا من أنفسهم طرفًا في بناء الحضارة، وأن يحجبوا دور مصر، بل واغتصابه أحيانًا، فليس لنا أن نلوم، «برنال»، أو نلوم الخصوم، بل نلوم أنفسنا لتقاعسنا. فكم كان جديرًا أن يصدر من مثل هذا المؤلف عشرات بأقلام مصرية، تمامًا مثلما هو جدير بنا، ونحن أصحاب التاريخ، أن تكون مصر ممثلة في جامعاتها هي المنهل والمرجع لتاريخ مصر يقصده الغرباء؛ لا أن يظل تاريخنا رهينة بين أيدي أصحاب الهوى، والأيديولوجيات المناهضة وتقنع من الجهد بالنقد والعويل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثاني

أثينا أفريقية سوداء

الجذور الأفريقية والمشرقية للإغريق (([2]))

اتفق «إدوارد سعيد» و«برنار لويس» على شيء واحد في مناظرتهما الأخيرة عن الاستشراق. رأى كلاهما أن الكلاسيكيات نموذج للدراسات الموضوعية المستقلة، وزعم لويس أن الاستشراق بلغ شأو الدراسات الهللينية، بينما قال سعيد: إن الاستشراق خانها. وفي اعتقادي الجازم أن النقطة الثابتة عند كليهما قلقة غير راسخة، وأنه لا توجد دراسة، على الأقل في مجال الإنسانيات، يمكن أن تقف خارج النماذج الإرشادية Paradigm (وتعني هنا المنظومة أو الإطار المعرفي- القيمي الحاكم للفكر- المترجم) الاجتماعية والفكرية السائدة في المجتمع الذي ينتمي إليه الباحث.

وأناقش في دراسة سوف تصدر وشيكًا البيئات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية التي نشأ فيها المبحث الجديد عن الكلاسيكيات (برنال 1986)، ووصولاً إلى هذا وجدت من المفيد أن أمايز بين نموذجين عن نشأة اليونان القديمة، وقد سميتهما «النموذج القديم» و«النموذج الآري»، وقد لقن أغلبنا النموذج الآري. وحسب هذا النموذج فإن الثقافة الإغريقية هي نتاج غزوة أو غزوات شنتها ضد اليونان جحافل وافدة من الشمال تتحدث لغة هند -أوروبية. وانتصر الغزاة على أبناء البلاد الأصليين الذين كانوا، حسبما هو معتقد، ليني العريكة، وإن كانوا أهل حضارة. وفيما عدا القول إنهم «بيض البشرة» أو «قوقازيون» وأنهم يقينًا ليسوا «ساميين» أو أفارقة فإننا لا نعرف غير النزر اليسير جدًا عن هؤلاء السكان السابقين على الحقبة الهللينية اللهم إلا ما خلفته لنا في اليونان القديمة من آثار لغوية كثيرة ليست هند أوروبية، وإذا كان من المستحيل تمامًا إثبات أن اليونان القديمة تمثل عنصرًا هند - أوروبي خالصًا، فقد جرت محاولة تخفيف ذلك بتصور نموذج خليط. وهكذا رئي أن سكان اليونان القديمة الأصليين قوقازيون نتيجة غزوة آرية لأقوام غير آريين، وإن اختلفت عن الغزوة الآرية للهند، وهكذا لم ينطو الأمر على شيء أساسي من عدم نقاء العرق.

وهذا النمط الذي تصوروه ليس مختلفًا فقط اختلافًا تامًا عن نمط غزو الهند، بل يشبه أيضًا الغزوة الجرمانية التي دمرت الإمبراطورية الرومانية. وهذه الحالات الثلاث جميعها تتسق تمامًا مع النظرة الأساسية للمجتمع الأبوي عن ربة الجمال والوحش وللاتصال الجنسي بينهما، أي للذكر القوي الغازي الذي

تزوج عن طريق الهيمنة بأنثى وديعة مثقفة بغية إنجاب طفل يحمل أفضل الصفات الوراثية عن كليهما.

والقول بأن هذه الغزوات المفترضة تتسق مع الطراز البدائي للمجتمعات ليس من شأنه أن يثبت زيفها. حقًا ونحن نعرف أن الإمبراطورية الرومانية تعرضت لغزوتين إحداهما جرمانية والأخرى من قبائل الهن Hun (برابرة من البدو الرحل الآسيويين أغاروا على أوروبا ونهبوها خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين- المترجم). ونعرف أن ثمة تقاليد قديمة راسخة تتطابق مع شواهد لغوية تشير إلى أنه قد وقعت حقًّا غزوة آرية للهند من جهة الشمال. وإنما أثير هنا الطراز البدائي الجنسي ليوحي فقط بأن النموذج يفيد كمبدأ توضيحي يفسر حالات تاريخية لا تجد سوى بينة ضعيفة تدعمها وربما لا شيء يدعمها على الإطلاق.

وأعتقد أن اليونان القديمة من بين هذه الحالات التي أعنيها، إن البينة الوحيدة التي يمكن إيرادها لدعم القول بأن غزوة قد وقعت من الشمال، هي أن اللغة اليونانية في أساسها لغة هند - أوروبية. وإزاء التشابه القوي مع نطق اللغة الهند أوروبية الأولى في المنطقة المعروفة الآن باسم أوكرانيا، فلا محيص عن القول بحدوث تدفق ثنائي من الشمال، بيد أننا لا نعرف كيف ومتى ساد نطق هذه اللغة في اليونان القديمة، وهذا هو الحال أيضًا بالنسبة إلى أصول ومنشأ الكثير من العناصر التي ليست من أصل هند أوروبي والواردة في اللغة اليونانية القديمة مثل أسماء الأماكن والمواقع الجغرافية وأسماء الآلهة والمقدسات والأسماء الواردة في الأساطير.

علاوة على هذا نحن لا نجد تراثًا لغزو اليونان القديمة من الشمال. وكانت هذه في الواقع إحدى المشكلات أمام الباحثين في القرنين 19، 20 ممن كانوا مقتنعين تمامًا بالدور المحوري للغزو في تكوين الثقافة الإغريقية. وعبر عن هذا جي. بي. بوري J. B. Bury في كتابه الخالد عن تاريخ اليونان القديمة حين قال: «البيت الحقيقي لليونانيين القدماء قبل أن تكون لهم الهيمنة في اليونان مضى واندثر دون أن يخلف أثرًا يذكرنا بهم، ولقد تطلعوا إلى الشرق لا إلى الغرب باعتباره الجهة التي هاجر منها بعض أسلافهم القدامى (انظر: 1913: Bury -25).

إن ما رآه (بوري) ذاكرتهم الناقصة أصفه أنا بالنموذج القديم. إن هذا التصور التخطيطي القديم اعتاد أن يصدق عليه غالبية الكتاب الإغريق القدامى المعنيين بفهم ماضيهم البعيد، هذا بينما لم يسقطه سوى كاتب أو اثنين ولم ينكره سوى «بلوتارك» فيما اعتدنا أن ننظر إليه بوجه عام باعتباره ثورة غضب ضد «هيرودوت» انظر: 13 :857 De Haroduti Malignati إذ يقضي هذا الاعتقاد بأن اليونان القديمة سكنتها قبائل بدائية من البلاسجيين pelasgians

(سكان بحر ايجه قبل الإغريق القدامى- المترجم) وغيرهم، ثم استوطنها بعد ذلك المصريون والفينيقيون الذين أقاموا المدن وأدخلوا نظام الري. لقد أدخل الفينيقيون الأبجدية، بينما علم المصريون سكان البلاد الأصليين أسماء الآلهة وكيفية عبادتهم، وساد اعتقاد بأن الأسر المالكة الأولى انحدرت عن سلالة إلهية مصرية أو فينيقية انظر: Herodotos, Histories VI-55, Aiskhylos, the suppliments, Euripide, the phoenician women.

هذا النموذج القديم لم يعد موضع ثقة في الربع الأخير من القرن 18 وجرى تكذيبه دون استناد إلى أي حجة جديدة، أو مصدر جديد للمعلومات ومن ثم لابد وأن نقرن هذا بتحولات فكرية أخرى. وأؤكد هنا أن هذه التحولات تمثلها الهيمنة الجديدة للنزعة الرومانسية، والنزعة العرقية ومفهوم التقدم. كانت الرومانسية نزعة لها شأنها لأنها في هجومها على شمولية التنوير أكدت الخصوصية كما أكدت أهمية المكان والقرابة في تلقي المعلومات عن الثقافات. وصاحب ذلك اعتقاد بأن البيئات القاسية أو الحافزة، خاصة بيئات الجبال أو الشمال الباردة هي التي أنجبت أفضل الشعوب وأكثرها تميزًا. وهكذا فإن عرقًا متميزًا مثل الإغريق لا يمكن أن يكون قد استمد ثقافته من الجنوب أو الشرق.

واقترنت الرومانسية على نحو وثيق بصعود النزعة العرقية المنظمة وهي الاعتقاد بأن ثمة رابطة كاملة وتامة بين القوة أو الرجولة وبين لون البشرة. ولقد تأثر كلا الاتجاهين بحاجة أوروبا الشمالية إلى تشويه سمعة الشعوب التي تسعى أوروبا إلى استئصالها أو استبعادها أو استغلالها من شعوب القارات الأخرى. كذلك فإن التوسع الأوروبي والغطرسة الأوروبية، وما نجم عنها من شعور بالتفاؤل كان لها جميعًا شأن كبير في سيادة النموذج الأساسي الجديد عن التقدم. وهكذا فبينما كان المصريون والفينيقيون القدماء هم مصدر شعورهم بالسيادة الثقافية في القرون السابقة، فإذا بنا نجد فكرة «اللاحق دائمًا أفضل من السابق» قد أفادت بوضوح اليونانيين. وارتبطت بها ارتباطًا وثيقًا عقيدة الفتوة والدينامية المتناميتين. إن حالة الاستقرار والعراقة الواضحتين بالنسبة لمصر والصين هما اللتان جعلتا منهما بؤرة إعجاب. بيد أنهما في ظل المناخ الفكري الجديد أصبحتا علامتين تدلان على الفشل.

هذه الضفيرة المتداخلة من المعتقدات لم تعد تطيق النموذج القديم ولا التسامح معه. إن اليونان القديمة، تلك الطفولة النقية ومثال أوروبا الفتية الدينامية لا يمكن أن تكون قد اكتسبت مدينتها من ثقافات الجنوب السكونية «الاستاتيكية» الهرمة ومن المصريين الأدنى مستوى عرقيًا.

وعلى الرغم من الهجوم الذي تعرض له النموذج القديم إلا أنه لم يتسن تدميره حتى عشرينات القرن 19، أو إبداله حتى أربعينات هذا القرن نفسه. وجاءت أهم التحولات الداخلية خلال هذا القرن مع اكتشاف أن لغات الإيرانيين وسكان شمال الهند تربطها صلات ووشائج باللغات الأوروبية. وتمخض هذا الاكتشاف عن نتيجتين: الأولى، والتي ذكرناها آنفًا، وهي إثبات وجود عائلة للغة الهند أوروبية وافتراض أن منشأها الأصلي كان في مكان ما في وسط أوراسيا. والثانية، أن التراث الهندي الناجم عن غزوة الشمال يمثل نموذجًا افتراضيًا لليونان فيما قبل التاريخ. وقد ظهر في ظل هذه الظروف، النموذج الآري عن اليونان القديمة.

والاعتقاد الشائع أن أحد الأسباب الهامة التي أدت إلى فقدان الثقة في النموذج القديم هو الفجيعة في الثقافات الشرقية بعد أن فك شامبليون رموز اللغة الهيروغليفية وقراءة الحروف المسمارية.

بيد أن هذا مستحيل من حيث الترتيب الزمني حيث أن هذين المصدرين الجديدين من المعلومات لم يبدأ إقرارهما من جانب علماء الكلاسيكيات إلا في خمسينات القرن 19 أي بعد أن ثبتت أركان النموذج الجديد. ونجد أحيانًا من يشير إلى أن النموذج الجديد إنما ظهر نتيجة اكتشافات أثرية، وهذا أيضًا غير مقبول حيث أن أقدم الاكتشافات الأثرية عن العصر البرونزي اليوناني، وهو اكتشافات شليمان(([3])) إنما جرت في سبعينات القرن 19، وهكذا فإن مصادر المعلومات الجديدة لم تكن هي التي خلقت النموذج الآري، ولكن الأمر ببساطة أنه جرت ملاءمتها معه.

وأجد لزامًا عند هذه النقطة أن أضيف بعض التعقيد على خطتي، وذلك بالتمييز بين شقين من النموذج الآري هما العام والمتطرف. لقد تأسس النموذج الآري العام رسميًّا خلال النصف الأول من القرن 19. وينكر هذا النموذج التراث القائل: إن المصريين أثروا في اليونان القديمة وإن أقرَّ بذلك بالنسبة للفينيقيين في الجانب الغالب منه. أما النموذج الآري المتطرف الذي ظهر قبيل نهاية القرن فقد رفض فكرة أي أثر سامي على الإطلاق وكان ثمة شك قليل منذ نهاية القرن 18 في أن العرق المتميز هو العرق «القوقازي». ونحن هنا نستخدم مصطلحًا جرت صياغته خلال تلك الفترة. وإذا استخدمنا مصطلحًا آخر جديدًا فإن القوقازيين ليسوا هم الأوروبيين فقط بل يشملون الساميين أيضًا، وظهر مفهوم آخر جديد مع إثبات وجود عائلة لغوية هند-أوروبية. ويقضي هذا المفهوم الجديد بأن ثمة عرقين لهما السيادة: الآري والسامي. ورئي أن ثمة حركة جدلية، دائبة بينهما، ولقد أعطى الساميون للبشرية الدين والشعر وأعطى الآريون الرجولة والديمقراطية والفلسفة والعلم.. إلخ.

ويسمح هذا في مجال الدراسات الكلاسيكية بقبول أسطورة الدور الفينيقي في اليونان القديمة. والحقيقة أن شهرتهم إنما ظهرت إلى حد ما لسد الفراغ الناجم عن غياب المصريين. ويصدق هذا بوجه خاص في إنجلترا خلال العصر الفيكتوري وقتما استهوت الناس لأسباب واضحة صورة البحارة القساة الغلاظ، الذين ينشرون الحضارة بينما يجنون الأرباح من بيع القماش وقدر من تجارة العبيد. بيد أن هذه الفكرة لم تلق أبدًا صدى واسعًا في أوساط الباحثين الألمان الذين حرصوا واستمسكوا بتكوين ما أسميه النموذج الآري المتطرف الذي ينفي أي افتراض يقول إن الفينيقيين والمصريين على السواء كان لأي منهما أثر هام في تكوين الحضارة الإغريقية.

وحري بنا عند هذه النقطة أن نعود إلى مفهوم العرقين السيدين، إذ ما أن قارب القرن التاسع عشر على نهايته حتى تزايد شعور المفكرين الأوروبيين بالاستياء إزاء حجم الثقة الكبير بالساميين. وتضاعفت الجهود لإثبات أولية الإغريق في الأهمية ومن ثم الأوروبيين في مجالي الشعر والعقيدة المسيحية، وتوافق هذا، بطبيعة الحال، مع تصاعد الكراهية العرقية ضد اليهودية في تعارضها مع النزعة الدينية المناهضة للسامية، ويمكن القول: إن الباحثين منذ عصر النهضة على الأقل قد رأوا، عن حق، علاقة وثيقة بين الفينيقيين واليهود. وهكذا يمكن للمرء أن يؤكد وجود تزامن صحيح بين ذيوع صيت الفينيقيين في الدراسات الأكاديمية التاريخية وبين درجة مناهضة السامية في المجتمع إجمالاً. ومن ثم فقد واكبت قضية دريفوس(([4])) في تسعينات القرن 19 عدد من المقالات ذات التأثير المهول والتي تنكر وجود أي تأثير غير أوروبي على الإغريق، بيد أن النموذج الآري العام ظل باقيًا على قيد الحياة في الأعوام 1925- 1935 حينما تم وضع الساميين، اليهود منهم والفينيقيين، في مكانهم على نحو نهائي خارج الحضارة الأوروبية.

وارتبط هذا بوضوح عند أحد المستويات بالأهمية الفعلية والبارزة لليهود في الثورة الروسية وفي الشيوعية العالمية، وجاء على مستوى آخر نتيجة الثقة بالنفس لدرجة عالية. لقد كان باستطاعة الأوروبيين، حيث بقية العالم كله تحت رحمتهم أن يروا التناقض الرئيسي تناقضًا داخليًا.

وتغير الموقف جذريًّا في عام 1945، إذ نلاحظ بعد هذا العام أن النفور المعنوي من النتائج التي ترتبت على نزعة مناهضة السامية كما تبدت في المحرقة النازية، واقتران ذلك بظهور العالم الثالث، وكذلك قيام إسرائيل التي اعتبرها الغرب «المخفر الأمامي للحضارة الغربية» قد أدى هذا كله إلى التراجع السريع وقبول اليهود باعتبارهم أوروبيين. وأن الثقة بالنفس المتزايدة، وإن تجلت أكثر ما تجلت في الصهيونية وفي الإحياء الديني، أفرزت كنتاج ثانوي محاولة استهدفت استعادة دور الفينيقيين، وهكذا نشبت منذ

ستينات القرن العشرين معركة لاستعادة النموذج الآري العام. ويبدو أن مقاومة أصحاب النموذج المتطرف قد حفزها جزئيًا الإطراء الأكاديمي ومقاومته للتغيير، واحترام السلطة المرجعية، وقد كان احترامًا عالي القدر تمامًا بطبيعة الحال في هذه الدراسات. ونلاحظ من ناحية أخرى الاستجابات السريعة إزاء الضغوط الاجتماعية والسياسية من جانب اليمين الأمر الذي يوضح لنا أن النزعة المحافظة السياسية بين علماء الكلاسيكيات متورطة أيضًا. وعلى الرغم من هذه المقاومة فإن دعاة النموذج الآري العام، والذي قاده أساسًا باحثون يهود، موالين للصهيونية أو مناهضين لها، بدءوا يكسبون أرضًا وسوف ينجحون يقينًا مع نهاية هذا القرن، ولكن استعادة النموذج القديم لمكان السيادة، وهو النموذج الذي أدعو له وأدافع عنه، ربما يحتاج إلى وقت أطول.

لنحاول الآن البحث على المستوى النظري في التحول من النموذج القديم إلى النموذج الآري، إن «توماس كون Kuhn» بقدر فهمي له، لا يقدم لنا أسبابًا موضوعية للتحول من نموذج إرشادي أو قياسي paradigm إلى نموذج آخر، فالتحولات حسب رأيه هي تحولات تعسفية بدرجة أو بأخرى داخل المجتمع العلمي انظر Kuhn, 1970. وحاول «لاكاتوس» من ناحية أخرى أن يربط هذه التحولات بتحولات أخرى في المجتمع ككل. وحيث أجد أنه رفض بإصرار التخلي عن مفهوم التقدم، فقد أكد أن النموذج الإرشادي الناجح لابد وأن يكون له «فائض قيمة توضيحي» بمعنى أنه لابد له وأن يفسر لنا كل شيء أو كل شيء تقريبًا سبق أن فسره لنا النموذج الإرشادي الذي نبذناه، علاوة على أشياء أخرى، انظر Lacatos, 1970, 106- 111. وقد يبدو هذا معقولاً ولكن بشرط واحد هام، ونعني به أن «فائض القيمة التوضيحي» لا يكون بالضرورة متضمنًا داخل النموذج الإرشادي أو النموذج المعني وإنما أن يتمثل أيضًا في فعاليته عند ربطه بنماذج إرشادية أخرى أو خارجية.

وفي حالتنا هنا التي تعنينا قد يكون من المفترض أن النموذج الآري قدم تصورًا للتاريخ الإغريقي أفضل من النموذج القديم خارجيًا وذلك من حيث علاقاته بالنظرة إلى العالم التي يتبناه المؤرخون المعنيون. وليس معنى هذا بالضرورة أنه قدم لنا أي تفسير «داخلي» لنشأة اليونان. وإذا عرفنا أن غالبية الباحثين اليوم لا يجمعون على رأي واحد بالنسبة للنزعة الإثنية الرومانسية والتراتبية العرقية اللتين شكلتا الجانب الأعظم للقاعدة التي تم على أساسها رفض النموذج القديم وابتداع نموذج آري، فقد يكون من الملائم لنا أن نختبر القيم الباطنية المساعدة على كشف الحقيقة في كل من النموذجين. ولكن قبل أن أبدأ في هذا أجد واجبًا على أن أعترف بأن ثمة انحيازًا ضد بينة اعتقد أنها وليدة حمل سفاح. بيد أنني أؤكد أن هذا وحده لا يكفي لبيان خطأ الدراسات الكلاسيكية. وسوف أسلم بداية بأن الدارونية، على سبيل المثال،

نشأت في نفس المناخ الفكري تقريبًا، ومع هذا فإنها تحتفظ بقيمة باطنية كاشفة حتى يومنا هذا بعد أن رفضنا غالبية القيم التي ارتكزت عليها في نشأتها.

والعناوين الرئيسية التي ستجرى المقارنة على هديها هي ما يلى: أسباب ذاتية جوهرية - الوثائق - الآثار - اللغة - أسماء الأماكن الجغرافية - أسماء الآلهة والمقدسات - الأسماء في الأساطير.

أسباب ذاتية جوهرية: دعاة النموذج القديم عاشوا فيما بين 500 ق.م و500م، ومن ثم كانوا أقرب إلى الفترة المعنية من أنصار النموذج الآرى. الذين عاشوا بعد 1800م، وعلى الرغم من أن الأولين عاشوا أكثر من ألف عام بعد الغزو المزعوم فقد كانت المواد الأساسية المتاحة لهم وفيرة في كل من مصر وفينيقيا. وكان الوصول إليها من ناحية أخرى يجرى أساسًا عبر المصريين والفينيقيين الذين أرادوا على الأرجح تعظيم شأن تراثهم وتقاليدهم خاصة فيما يتعلق منها باليونان. ولم تكن في اليونان ذاتها فترة أمية مطبقة بين العصرين البرونزي والحديدي، انظر Navah, 1982; Bernal in Press**. وهكذا فإن بعض السجلات التي كتبها مواطنون محليون وأكملتها وثائق من مصر ومن فينيقيا وتراث شفاهى وبقايا أثرية بل وآثار معمارية قدمت جميعها للمؤرخين اليونانيين بعد القرن الخامس معلومات هامة وكافية عن ماضيهم.**

ويبدو أن هؤلاء المؤرخين اليونانيين قد توزعت آراؤهم وانقسموا على أنفسهم في مواقفهم إزاء فكرة انتساب ثقافتهم الأولى إلى المصريين والفينيقيين. وظهر أن بعض الكتاب أثلج صدورهم أن اهتدوا إلى جذور تاريخية عميقة لثقافتهم عبر هاتين الحضارتين القديمتين، ولكن واضح من ناحية أخرى أن كثيرين لم يَرُقْ لهم القول بدونية الثقافة الذي وضعهم فيه مثل هذا النمط التاريخي خاصة وأن المصريين والفينيقيين لا يزالون حولهم في كل مكان. ولعل هذا الشعور بالاستياء يقدم لنا تفسيرًا لماذا أغفل المؤرخ ثوسيديدس Thucydides ذكر رأى عن التاريخ كان ذائعًا تمامًا في عصره.

والملاحظ أن علماء الكلاسيكيات وعلماء التاريخ القديم خلال القرنين 19 و20 كانت معلوماتهم قاصرة ناقصة في كثير من النواحي. حقًّا إن علماء المصريات يمكنهم أن يقرءوا اللغة المصرية القديمة أفضل من اليونانيين الذين قصدوا مصر، إنهم لا يستطيعون بطبيعة الحال أن يقرءوها شأن الرواة المصريين المتحدثين بلغة الإِغريق. علاوة على هذا فإن المؤرخين المحدثين، على خلاف اليونانيين القدماء، لا يمكنهم أن يستشعروا واقع المجتمع المصرى القديم أو أن يسألوا المصريين القدماء. والجدير بالذكر أن المخطوطات الباقية والتى خلفها لنا المشرق ليست ذات أهمية بالمقارنة بالمخطوطات القديمة التي نعرف أنها كانت موجودة منذ ألفى عام مضت.

حقًّا لقد ساعدنا علم الآثار على أن نعرف من الثقافة المادية عن مصر واليونان القديمة –وليس فينيقيا– أكثر مما عرفه، أى إنسان آخر طوال 1500 سنة مضت. بيد أن هذا لا يجعلنا نتجاوز وضع القدماء أنفسهم الذين عاشوا في نهاية حقبة تميزت باستمرارية ثقافية فريدة على مدى 3000 عام.

بيد أن أنصار النموذج الآرى لم يؤسسوا دعواهم بالتفوق على كم من المعلومات. إذ أن كل ما يعنيهم ليس كم المعلومات بل الفائدة المرجوة من استخدامها. وبدا لهم، وحدهم دون سواهم، أنهم عالجوها «علميًا» ومن هنا جاء مصطلح «علم العصور القديمة». وذهب بهم الظن إلى أنه مثلما تجاوزت السكك الحديدية والبواخر والبرقيات كل وسائل النقل والاتصالات السابقة كذلك فإن نهجهم أو «منهجهم» التاريخي العلمي أو الشكي قد ارتقى بهم إلى مستوى أسمى تمامًا من كل المستويات السابقة خاصة ما يتعلق بالإِغريق «السذج».

ذهبوا إلى أن النموذج القديم وهم وضلال تمامًا. ومثلما أن المؤرخين «العلميين» أسقطوا كل إشارة إغريقية إلى كائنات خرافية مثل القنطور والسارين وغيرها من كائنات أسطورية خرقت قوانين التاريخ الطبيعي كذلك يتعين محو نظرة القدماء القائلة بأن الأفارقة وسكان الشرق الأدنى هم الذين أدخلوا الحضارة إلى الإِغريق وذلك لتعارضها مع «علم الأعراق». ولقد صيغ المصطلح الطبي (الهوس بالمصريات Egyptomania) في ظل هذه الروح «العلمية». وقيل إن هذا وهم وضلال أثر على اليونانيين العقلاء وغرس فيهم اعتقادًا بأن مصر هي ركيزة ومحور ثقافتهم.

الوثائق:

على الرغم من أن الاتجاه الغالب هو وصف منطقة بحر إيجه في الألف الثانية ق.م، بأنها قبل التاريخ المكتوب إلا أنها ليست كذلك في واقع الحال. أولًا وقبل كل شيء نحن نعرف أن الأكثرية، إن لم تكن جميع البلدان في هذه الحقبة كانت تعرف القراءة والكتابة. ثانيًا، فإن المشرق الأدنى ومصر، وكلاهما يعرفان الكتابة والقراءة تمامًا، كانت لهما صلة بالمنطقة.

إن الوثائق الباقية الوحيدة والمفهومة في منطقة بحر إيجه هي ألواح المجموعة الخطية بى «B» والتى عثر عليها في كل من كريت وداخل شبه جزيرة اليونان، ويرجع تاريخها إلى القرنين 14 و13 ق.م. وقد كتبت هذه الألواح بلغة يونانية تحتوى على الكثير من الكلمات السامية الدخيلة على نحو ما هو معترف به، انظر: Astour 1967, 337–338، كما تحتوى على الكثير من الكلمات المصرية القديمة. والألواح وثائق إدارية خاصة باقتصاديات القصور الملكية وتشبه بصورة مذهلة ألواح المشرق وما بين النهرين، وتمتد أوجه

التماثل هذه لتشمل نظام الأوزان والعبارات البيروقراطية المتطابقة، انظر: Ventris and Chadwick 1973, 38–60 and 106. وهناك أيضًا عدد من أسماء الأشخاص مثل «إيكوبيتيجو» Aikupitijo و«مزاريجو» Misarijo وهى أسماء مصرية وتوريجو Turijo أى بلدة صور (توريان أو صورى من بلدة صور) مما يدل على وجود شعب وفد من هذه الأماكن خلال العصر البرونزى في منطقة بحر إيجة، ولم نعثر لسوء الحظ على نصوص تاريخية في الخطية بى «B». لذلك وعلى الرغم من أن الألواح تثبت الأثر الهام والكبير للشرق على اليونان في العصر البرونزى المتأخر فإننا لا نجد بينة تشهد على وجود مستوطنات أو غزو.

ويصدق الشيء نفسه على نصوص بين المشرق، فثمة ألواح من الميناء السورى الكبير «أوغاريت» ترجع إلى القرنين 14 و13 ق.م. تثبت ليس فقط أن موظفى الميناء يعرفون كريت، بل وأنهم أيضًا يتاجرون معها. وهناك خطاب يرجع تاريخه إلى القرن 14 ق.م مرسل من أحد ملوك صور إلى فرعون مصر، ويذكر الخطاب اسم أحد ملوك دانونا Danuna الذي كان على الأرجح يعيش في اليونان، انظر: Astour, 1967: 5.:

ولكن المصادر المصرية أكثر وفرة إذ نجد إشارة إلى جزيرة كريت في وثيقة ربما يرجع تاريخها إلى الفترة المتوسطة الأولى في القرن 22 ق.م، انظر: Ver Coutter, 1956, 43–45; Strange, 1980, 71–73 وتواترت الإشارات إلى بحر إيجه خلال فترة حكم الهكسوس «1720 - 1570 ق.م»، والهكسوس جماعة على الأرجح من الشماليين المتحدثين لغة سامية، وغزوا مصر وحكموها طوال هذه الفترة تقريبًا. واعتاد المؤرخون العودة بهذه الفترة إلى القرن الثالث ق.م. وربطها بتراث العهد القديم والإقامة في مصر، واعتادوا أيضًا ربط طرد الهكسوس على أيدى المواطنين المصريين بالخروج الذي تحكى عنه التوراة، ونجد لهذه الحقبة أيضًا تراثها بين الإغريق أنفسهم وهو تراث يتحدث عن مستوطنات دنانز Danaans والانتقال من مصر إلى يونان كادموس الفينيقى Phoeniclan Cadmus - انظر: Diodorus Siculus XL; 3; 2.

بيد أن من الأمور المثيرة للاهتمام أن حكام حاو نبو H3W Nbw وهو اسم إقليم يتطابق على نحو مستساغ مع منطقة بحر إيجة، قد تحالفوا كما هو ظاهر مع المصريين ضد الهكسوس انظر Vercoutter, 1956: 13–32. والملاحظ دائمًا وجود اتصال وثيق بين الإقليمين طوال نهاية حكم الهكسوس وبداية الأسرة 18 (1650 - 1550 ق.م) انظر: Helck, 1979: 81 ومنذ هذا التاريخ ونحن لدينا قائمة بأسماء من Kftiw أو كريت وتشتمل القائمة على بعض الأسماء السامية وبعض أسماء من بلدة أور(([5])) وكثير من الأسماء

المصرية وأسماء أخرى غير معروف منشؤها، انظر: Vercoutters, 1956, 45–50، وبغض النظر عن المزيج الإِثنى الذي تصوره هذه القائمة إلا أنها توضح اهتمام المصريين بالجزيرة وحقهم في معرفة شئونها. ويتجلى هذا التأكيد أكثر وضوحًا بالقياس إلى الفقر الوثائقى الشديد للغاية بالنسبة لأى موضوع آخر في تلك الحقبة.

والسنوات التي شهدت أبرز الدلائل على وجود علاقات وثيقة بين مصر ومنطقة بحر إيجة هي السنوات من 1450 إلى 1320 ق.م. والتى أقامت خلالها المملكة الحديثة إمبراطورية لها في المشرق.

فثمة وثائق من هذه الفترة عن بعثات وافدة من الجزر إلى مصر. وليس ثمة أدنى شك في أن المصريين رأوا في هذه العلاقة على الأقل صورة من صور السيادة لهم، انظر: Vercoutter, 1956, 50:100. ولدينا من هذه الفترة أيضًا قائمة بأسماء مواقع في كريت وفى أراضى اليونان تشهد بأن معرفة المصريين بالإِقليم هي معرفة تفصيلية نسبيًا، انظر: Helck, 1978, 30:33.

وأحرى بنا قبل أن نترك الوثائق المصرية أن نذكر أنه سوف يصدر قريبًا مخطوط هام اكتشف في ميت رهينة في ممفيس يرجع تاريخه إلى منتصف الأسرة الثانية عشرة، في أوائل القرن 19 ق.م. وتحكى هذه الوثيقة تفصيلًا أنشطة فراعنة مصر عن طريق البر والبحر في المشرق وما وراءه، انظر: Farag 1980: Posener 1987. وثمة دليل أثرى من مؤسسة دينية ملكية ترجع إلى هذه الفترة يشير إلى وجود اتصال غير مباشر على أقل تقدير مع منطقة بحر إيجة، انظر Helck, 1979, 113:19، وهذا من شأنه أن يزيد من الاحتمال الواقعى الذي يقضى بقيام بعثات مصرية إلى هذا الإِقليم وهو احتمال مقبول عقلًا ويمكن ربطه بدعوة مصرية أثبتها ديودور تقول إن «كيقروبس» Kekrops مؤسس أثينا قد وفد من مصر (انظر Diodorus, 1:28). ولقد ورد ذكر أحد الفراعنة في المخطوطة (سنوسرت الأول) إذ أثبتت المخطوطة اسمه الأول خيبر كارع Kheper Karë أم ترى هو كاخيبر Kakheperrs؟

والمخطوطة لها علاوة على هذا نتائج واسعة المدى، أولًا، أسقطت مرة وإلى الأبد الأسطورة الآرية التي تزعم أن المصريين لم يركبوا البحر على الإِطلاق. وغيرت كذلك التوازن بين القيمة النسبية للكتابات القديمة وعلم المصريات الحديث، إذ أعطت الكتابات القديمة تفاصيل الغزوات الكثيرة التي قام بها كل من سيزوستريس Sesostris وممنون Memnon اللذين يمكن القول: «إنهما هما ذات الفرعونين اللذين جاء ذكرها في المخطوطة»، انظر: Herodotus II. 100–105 and DiodorusI, 53–58 & II 21:32، والجدير بالذكر أن مؤرخى العصور القديمة اعتادوا خلال القرنين 19 و20 معاملة هذه

الأوصاف باعتبارها باطلة بحجة أن عالم المصريات لم يعثر على شواهد تؤيدها. ويبين لنا هذا إلى أى حد يمكن «العلم» أن يخطىء مثلما يبين لنا مدى الخطر الذي يمكن أن ينجم عن حجة التكتم حتى بالنسبة لبلد مثل مصر الذي أمكن الكشف عن آثاره بطريقة جيدة نسبيًا.

بيد أننا لا نجد، باستثناء هذا، أي بينة مصرية عن غزوات أو مستوطنات محتملة في منطقة بحر إيجة، ومن ثم، وكما تشير نصوص الخطية بى B فإن كل ما توضحه لنا الوثائق هو أنه كان هناك اتصال قوى بين اليونان القديمة ومنطقة شرق المتوسط خلال الألفية الثانية قبل الميلاد.

الآثار:

تعرض كتابات «بلوتارك» في القرن الثاني ق.م، وصفًا تفصيليًّا لاكتشاف تم قبل هذا التاريخ بخمسمائة عام عن موضوعات وأشياء مصرية مع نقش مكتوب في بيوتيا Boiotia في وسط اليونان، انظر: De Gen. Soc. 5–7، بيد أننا هنا سنحصر أنفسنا في نطاق الآثار المكتشفة حديثًا. لم تعثر هذه الآثار على نقش حجرى تذكارى أو غير ذلك من نقوش تسجل شيئًا عن مستوطنات مصرية أو سامية، بل على العكس فقرب منتصف الألفية الثانية، وهو الوقت الذي حدده النموذج القديم بأنه زمن المستوطنات الأفرو آسيوية الرئيسية، حدثت على ما يبدو قطيعة حادة في الثقافة المادية لليونان القديمة. ويبدو أن منتصف العصر البرونزي للإِغريق «2000 – 1600 ق.م»، كانت فترة فقيرة، ولكن في نهايتها حدث على ما يبدو تحول اجتماعى مفاجئ وعنيف. وهذا ما تكشف عنه الآثار الغنية بصورة مذهلة التي تم العثور عليها في مقابر شافت وتولوز في هذه الفترة، فالأواني الفخارية التي كانت تحويها هذه المقابر هي من نفس الأسلوب الذي تم العثور عليه قبل ذلك مما يشير إلى قدر من الاستمرارية. غير أن المشغولات المعدنية الفنية ليس لها سابقة لدى الإِغريق. وعلى الرغم من أن هذه القطع من المشغولات لها أسلوب متميز إلا أن ثمة أوجه شبه بينها وبين مشغولات أخرى معاصرة لها أو قبلها بقليل في سوريا ومصر وكريت. ويدل ثراء القبور في ظاهره على وجود طبقات اجتماعية. وإذا كان لخزائن القبور، وهو ما يبدو أمرًا مستساغًا، أن تكشف عن المهن الحقيقية أو المثالية لأصحابها فإن المجتمع الجديد مجتمع حربي في الأغلب، ذلك أن القبور زاخرة بالسهام والرماح والمدى ثم السيوف وهى سلاح جديد تم استحداثه أخيرًا في جنوب غرب آسيا.

ولكن دعاة النموذج الآرى عمدوا إلى تأويل هذا الدليل بإحدى وسيلتين، الأولى: أن شيوخ القبائل اغتنوا واستوردوا سلعًا شرقية، وقلدوها. والثانية: أن الإِغريق سافروا إلى مصر للحرب كجنود مرتزقة وعادوا بأسلحة جديدة وأساليب فنية وتقنية جديدة. ويمكن بالمثل تأويل هذا الدليل على أنه يوضح

أن المقابر كانت مقابر مصرية – فينيقية تضم رفات الطبقة الحاكمة المحاربة من الهكسوس. وهذا في واقع الأمر هو الموقف الذي اتخذه كتاب تاريخ كيمبريدج للعصور القديمة، وهو الكتاب المعتمد باعتباره العمدة في مجاله، بيد أن كاتب هذا الفصل يظل داخل إطار النموذج الآرى، حيث يصر على أن شيوخ الهكسوس لم يكن لهم أثر باق على الثقافة الإغريقية، انظر: Stubbings: 1973, 637 ونجد دعمًا آخر يعزز القول بوجود رابطة بين مدينة ميسيني القديمة، وبين الساميين الغربيين، وهو ما يتمثل في شكل الجبانة الملكية في مدينة ميسينى وفى بيبلوس إذ تتألف من مقابر ذات أعمدة حجرية لها رؤوس شبه دائرية انظر: Montet, 1921 ؛Hooker, 1976, 36–38 24 –، ويبين من هذا كله أن الدليل الأركيولوجى، إنما يدعم فحسب النموذج القديم ولا شىء آخر. بيد أن الأركيولوجيا أداة كليلة للغاية. إذا شئنا منها يقينًا قاطعًا في هذا الصدد.

اللغة:

نجد لزامًا أن نؤكد هنا أن ليس ثمة شك على الإِطلاق في أن اليونانية هي أساسًا لغة هند – أوربية. يتضح لنا هذا من بنية ونحو اللغة: الحالة الصرفية، والنهايات الشخصية، وجوهر مفرداتها، والضمائر وحروف الجر، والأعداد، والأفعال، وأسماء الأشياء اليومية للحياة الزراعية. ولكن نجد من ناحية أخرى أن أكثر من 50٪ من معجمها المتعلق بمجالات ودلالات الألفاظ وتطورها «السيمانطيقا» والخاصة بالحياة الترفية والسياسية – لا الأسرية، والقانون والدين والمجردات ليست من أصول هند أوروبية. ونعرف أن أكثر الأنماط شيوعًا للغات الناتجة عن الغزاة والاستيطان هي ما نجده في اللغات الإِنجليزية والسواحلية الفيتنامية، إذ نجد هنا المواطنين يحتفظون بجوهر أو لب اللغة وإن أدخل الغزاة مفردات الثقافة الحضرية. وقياسًا على هذا التمثيل لم تكن اليونانية نتيجة غزو آرى شنته قبائل قبل العصر الهللينى، بل هي إحدى الأشكال الناجمة عن احتلال مصرى وفينيقى. ولكن ثمة نمط آخر نجده في اللغتين التركية والمجرية حيث تمثل الغزاة اللغة المصقولة لضحاياهم. بيد أن الغرباء في هذه الحالات يحتفظون بمعجمهم الخاص المتعلق بالمصطلحات العسكرية. ومن هنا فإن جميع الكلمات اليونانية تقريبًا المتعلقة بالأسلحة والتنظيمات العسكرية هي كلمات ليست هند – أوروبية. لذلك فإذا شئنا أن نؤكد القول بالنموذج الآرى يكون لزامًا على المرء أن يسلم بلغة مولدة لها رموزها ونماذجها الفريدة.

اعتقد أن أكثر، إن لم يكن أغلب العناصر غير الهند.. أوروبية في اللغة اليونانية يمكن تفسيرها على أساس مصري أو سامى غربي. ومن ثم لا حاجة بنا إلى أن نفترض مقدمًا أساس قبل هلليني.

ظهرت على الساحة خلال القرن 17 و18 و19 أعداد كبيرة من المحاولات لدراسة «أتيمولوجية» أى الأصول السامية للكلمات اليونانية وتاريخها، انظر: Muss – Arnolt, 1897, 35–155. غير أن غالبية هذه الدراسات كان مصيرها النبذ، ولم تتسن قراءة اللغة المصرية إلا بعد إقرار النموذج الآرى. ومن ثم، وباستثناء محاولة هامة قام بها «بار تليمى Barthelemy» خلال القرن 18 لاستخلاص الكلمات اليونانية من جذور قبطية، لن تجد أى محاولة استهدفت استكشاف الكلمات الأساسية الدخيلة التي استعارتها اليونانية من اللغة المصرية انظر: Barthelemy, 1763: 212–233.

ولكن الكلمات الدخيلة في كلتا الحالتين تم إقرارها في مجالات دون إخلال بالنموذج الآرى. وهكذا لن يعترض أحد على اشتقاق كلمة أبنوس Ebony من الكلمة المصرية ابنى [6]((Hobny)) أو كلمة سمسم Sesame من الكلمات السامية الغربية «إس إس SS». والواقع أن عددًا من الكلمات الترفية التي ترجع أصولها إلى اللغة السامية الغربية تم إقرارها.

وشهدت بصحة هذا النسب الآن الخطية بى B بعد أن كان الظن السائد أنها كلمات جاءت في فترة متأخرة. ومن هذه الكلمات «خيتون Khiton» وتعنى ملابس، وخريسوس Khrysos وتعنى ذهب، ونجد في المقابل أصولًا لغوية لكلمات أخرى مثل «بوموس Bomos» وتعنى مذبح أو مكان مرتفع من الكلمة «باماه Bàmah» التي لها نفس المعنى، قد تم إسقاطها دون مناقشة على الرغم من أن أحدًا لم يقترح أى أصل لغوى هند – أوروبى لها، انظر: Masson: 1967: 7، وأبسط تفسير لهذه المعايير المختلفة هو أن النموذج الآرى المتطرف، لا يتسامح مع وجود كلمات سامية دخيلة في المجالات المحورية لدلالات الألفاظ وتطورها مثل الدين. ولكن ثمة أصول لغوية أخرى عديدة ومستساغة في المجال ذاته نذكر من هذه الكلمات كلمات، مثل الرحيق أو الشراب الإِلهى وهى Nektar من Niqtar وتعنى نبيذ مقطر أو متبخر؛ وهى كلمات سبق اقتراحها. انظر: Muss – Arndt, 1897: 143, Levin, 1978; 54–55. ولكن ثمة كلمات أخرى لم يسبق اقتراحها مثل «قُدُس Kudos» وتعنى مجد إلهى وتعنى النقيض القذر أو اليائس وهى مأخوذة من «قدس KDS» ولها نفس المعنى. وكذلك «Naio» بمعنى يسكن أو يقيم؛ و«ناوس Naos» بمعنى المقام الإِلهى، أو المقام المقدس من «نَوَه Nwh» ولها المعنى العام نفسه كما أن لها مدلولات خاصة، وأيضًا كلمة «سفج Sphag» «سبك Spk» بمعنى يضحى يقطع الرقبة أو ينحر (والكلمة العربية سفح وسفك وذبح وهى كلمات سامية – المترجم). وتبدو هذه جميعها مستساغة تمامًا مع عدم وجود منافس لها.

ومن أصول الكلمات التي تزايد إقرارها الأصل المصري للكلمة اليونانية مكاريوس أو مكارى Makarios وهو «ماكرو M3'hrw «بمعنى الصادق، وهى الصفة التي تطلق على الميت الذي اجتاز بنجاح الحساب الأخروى انظر: Vermeule 1979; 72:73، وثمة مصطلحات قانونية مصرية أخرى تبدو معقولة بنفس القدر.

انظر على سبيل المثال «مارتيروس Martyrso» من «مترو mtrw» بمعنى شاهد، وكلمة «Tima» الشرف في كل من مجالي الحرب والقانون مأخوذة عن أصل مصري «تيما Tym 3» وتعنى سبب كونه عادلًا (انظر Cerny, 1976; 188 وبالمثل أورتوس OrThos بمعنى مستقيم عموديًّا وهى مأخوذة على ما يبدو من «وات W3t» وهى ثقل الفادن أو حبل البناء المستخدم في التخطيط المعمارى انظر: Baddawi, 1969: 4 (الألف التي تشبه النسر والتى تأخذ هنا شكل 3 تشبه حرف ر r في المصرية في العصرين القديم والوسيط).

ونجد في السياسة فروقًا صارخة بين الجذر الهند – أوروبى لكلمة مثل ريج Reg بمعنى يحكم، أو بمعنى ملك، والتى نجدها في «راجا Rajah» و«ركس Rex» وفى الكلمة الأيرلندية «Ri» وبين الكلمتين اليونانيتين «أناكس Wanax» و«باسليوس Basileus» الأولى مشتقة على ما يظهر من العبارة المصرية القديمة «عنخ جت 'nh dt» وتعنى «عاش إلى الأبد» وتستخدم بعد ذكر أسماء الفراعنة الأحياء. وعزز هذا الأصل اللغوى بمشتقات من الجزع الإِغريقى لبعض مظاهر الشذوذ الواضحة مثل «التابوت المقدس» و«الماء الحى أو المتدفق»، وتستخدم في الحالتين الكلمة المصرية عنخ 'nh بمعنى الحياة.

وكان الأمير basileus في الإِغريقية القديمة تابع للملك W(anax) وكلمة «بازر p3 sr» في المصرية القديمة تعنى في الأصل «الموظف الرسمى» ثم أصبحت كلمة موظف تعنى وزير. ونجدها مترجمة مع تحوير إلى اللغة الأكادية في صورة بازيا – را Pasia – ra، انظر: Edel, 1978: 120–121. وإذا عرفنا أن المصرية المتأخرة لم تكن تمايز بين حرفى بى p و هـ h، وغالبًا ما كان الحرفان المصريان M S يقلبان آى في الإِغريقية لن نجد صعوبة صوتية في التطابق الدلالى.

وكذلك كلمة «سوفيا Sophie» بمعنى الحكمة لن نجد لها أصلًا هند – أوروبى مقبولًا. ولكن الأوفق أنها مشتقة من الكلمة المصرية القديمة «Sb 3» بمعنى يعلِّم – تعليم. ونعرف أن الحرف المصرى القديم بى b يقلب أحيانًا في الإِغريقية ليصبح ف ph مثلما هو الحال في اسم الربة نت خت «Nbt ht» التي تصبح نفتيس Nephthys ومن ثم لا وجه للاعتراض من الناحية الصوتية على

الأصل اللغوى الذي يتطابق تمامًا مع التراث القديم الذي يرى أن «سوفيا Sophia» وافدة من مصر(([7])).

ننتقل الآن إلى الأسلحة: من المقبول بوجه عام اشتقاق الكلمة الإغريقية «سيفوس xiphos» بمعنى السيف من الكلمة المصرية «Sft» التي لها نفس المعنى (انظر: Cerny, 1976: 171)، كذلك من المقبول القول إن مرادفها Phasganos مشتقة من الكلمة السامية «بسج PSG» بمعنى شق أو قطع. وهاتان الكلمتان لهما أهمية خاصة لأنهما تشيران إلى أحد الأسلحة الحديثة في الفترة الخاصة بقبر شافت، وأدى السيف أيضًا دورًا محوريًا في الأساطير باعتباره السلاح السحرى لهزيمة الأبطال على نحو ما حدث مع كل من «برسيوس Perseus و«تيسيوس Theseus» اللذين انعقد لهما لواء النصر دائمًا على أعدائهما. وتمثل العربة ذات العجلات إنجازًا عسكريًا آخر في تلك الفترة، والكلمة اليونانية الدالة عليها هي «هارما Harma» ويبدو أنها مأخوذة عن حبال الأشرعة نظرًا لوجود عدد كبير من الكلمات ذات الصلة من حيث المجال الدلالي للفظ: «شبكة، حبل، يخيط». وهذه المجموعة كلها يمكن على نحو مستساغ اشتقاقها من الجذر الإفريقى الآسيوى «حرم HRM» الذي له نفس المعنى، ونجده في اللغة السامية وفى اللغة المصرية على السواء.

وهذا ليس إلا قليلًا جدًّا من بين مئات الأمثلة لكلمات إغريقية لها أصول مصرية وسامية، وغالبيتها العظمى ليس لها بديل هند أوروبى، وإذا نظرنا إليها كميًا نجد أنها، على ما يبدو، تؤلف نسبة كافية من العناصر غير الهند أوروبية في اللغة الإغريقية.

ويسمح لنا هذا بأن نرفض الأساسى الافتراضى الذي يعزو هذا كله إلى عصر قبل الحقبة الهللينية. ويصبح لزامًا أن نبدله بأساس مصرى وفينيقى وهو ما يقتضي بالضرورة العودة إلى النموذج القديم.

أسماء الأماكن الجغرافية: قليل جدًّا من أسماء الأماكن اليونانية التي يمكن تفسيرها في ضوء اللغة – الهند أوروبية. ويعزوها أصحاب النزعة الآرية إلى حقبة ما قبل الهللينية، ويؤكدون على أهمية مجموعتين تنتهيان بالنهاتين Nthos, - SOS **اللتين تحتفظان في رأيهما بأساس مشترك مع زوائد أخرى في اللغتين الإيطالية والأناضولية (الأناضولية لغة من أصل هندي أوروبي ولكنها انقرضت – المترجم) انظر** Haley and Bleyen; 1927: 141–154**. بيد أن الموقف ليس بهذه البساطة، حيث أن هذه النهايات الملحقة بالكلمات نجدها في نهاية جذور الكلمات الأوروبية والسامية مما يبين أن بعضها وإن كان قديمًا إلا أنه لا يمكن اتخاذه مؤشرًا على الانتساب إلى الحقبة قبل الهللينية انظر:** Kretschemer, 1923, 48: 106**. وثمة بعض الشك أيضًا فيما إذا كانت المجموعات لها أصول واحدة انظر:** Laroche, 1972: 213**. وليس**

معنى هذا إنكار مظاهر تشابه في أسماء الأماكن بين اليونان والأناضول، وهذا هو ما يمكن تفسيره في إطار النموذج القديم المنقح بإحدى وسيلتين.

الأولى: الأساس الهند – حيثي المشترك الذي يفترضه النموذج، والثاني: القول إن المنطقتين تلقيتا معًا ثقافة فينيقية مصرية. وهكذا نجد على سبيل المثال أسماء أماكن مصرية خالصة مثل أبيدوس Abydos وسينوب Sinope على الساحل الشمالى لتركيا الآن.

ونجد عددًا كبيرًا جدًّا من أسماء الأماكن اليونانية لها، وعلى نحو مستساغ، أصولًا سامية ومصرية. مثال ذلك اسم نهر ياردانوس Jardanos نجده في كريت وفى جزر البليبونيز. وهذا الاسم، كما رأى أكثر الباحثين، مشتقٌّ بوضوح من «ياردان Jardan» أو «جوردان Jordan» أو الأردن انظر: Frazer: 1898, IV; 94. وكذلك الاسم «أنيجروس Anigros» مأخوذ كما هو واضح من جذر سامى «(ن) جر (N) GR» بمعنى يتدفق أو ينبجس». ويأتي في غالب الأحيان بمعنى «واحة» أو «نهر في الصحراء» في جميع أنحاء جنوب غرب آسيا، وفى شمال أفريقيا خاصة بالنسبة لنهر النيجر. وتشتمل الأسماء المصرية على كلمة «فينوس P(h) eneus» هي «بانوى P3nwy» بمعنى ماء أو فيضان. وكثيرًا ما تشير الأساطير المتعلقة بهذه الأماكن اليونانية إلى الفيضانات. مثال آخر خاص بأكثر أسماء الأنهار اليونانية شيوعًا وهو كيفيسوس Képhisos وهذا الاسم كما هو واضح مأخوذ عن اسم مكان مصري قِبح أو رقبه kbh بمعنى نبع عذب بارد، أو منبع نهر مع إضافة النهاية «سوس Sos».

وكذلك أسماء الجبال لها أصول أفريقية آسيوية، فنحن نجد الجذر «سام Sam» في أسماء الجبال في جميع أنحاء اليونان مثل ساموس Somos وساميكون Samikon وساموتراس Samothrace وجميعها تقريبًا مشتقة يقينًا من الكلمة السامية «شام Sam» بمعنى سام أو سماء (وفى العربية أيضًا شما وشمخ – المترجم). والكثير من أسماء المدن المرتفعة مثل «هرميون Hermione» مشتقة من الكلمة السامية الغربية «حرمن HRMN» بمعنى «الجبل المقدس» ونجدها شائعة في منطقة المشرق خاصة اسم جبل حرمون (ويسمى أيضًا جبل الشيخ ويطلق على القسم الجنوبي من سلسلة جبال لبنان الشرقية على الحدود السورية، ويشرف على وادى القرن، وفلسطين، وحوران، ووادي التيم، وورد ذكره باسم حرمون في التوراة – المورد– المترجم). ويظهر الاسم كذلك في جنوب غرب آسيا بدون حرف ن في نهايته. ويوجد في أتيك باليونان جبل مقدس اسمه هارما. وإذا عرفنا أن الأسماء الهند – أوروبية نادرة في جزيرة كريت، فإنه يبدو واضحًا أن جبل «إيدا Aide» ليس مشتقًا على الأرجح من الاسم اليوناني «إيدى ide» بمعنى خشب، وإنما الأقرب إلى الصواب أنه مشتق من الاسم السامي «إيد Y, D»

بمعنى يد. وندرك أن هذه هي الطريقة التي كانوا يفهمون بها الاسم إذا عرفنا القرائن التي تقترن باسم الجبل وباسم جبل آخر له نفس الاسم قرب طروادة إذ يقال ذو الأصابع الخمسة (Daktyloi 5).

ويبدو أن أسماء الجبال التي من أصل مصري أقل شيوعًا وإن كان اسم جبل «بليون Pelion» قد يكون مشتقًا من «بارو p3 rw» بمعنى الأسد. وهناك جبل «سايتا Saita» في أركاديا الذي أخذ اسمه، حسبما هو مفترض، من اسم المدينة المصرية سايس. ولكن الأسماء المصرية تغلب على المدن، وكثيرًا ما احتج البعض مؤكدًا أن طيبة اليونانية أخذت اسمها عن الكلمة الكنعانية طيباه (Tebah) وتعنى فُلك أو صدر انظر: Astour, 1967: 158. وربما يكون هذا أحد العناصر في تشكيل الاسم، ولكن الشيء الأكثر جوهرية فيه مأخوذ على الأرجح من جذر الكلمة المصرية جبا «db3» بمعنى صدر و«جبات db3T» بمعنى قصر. ومن حيث أنه اسم مكان، فإن الاسم «جبا gba» أطلق على مدن كثيرة من المحتمل أن يكون من بينها عاصمة الهكسوس والمعروفة أيضًا باسم أواريس. انظر: Brugsch, 1869: 922، إذا تصورنا أن الإغريق فهموا الاسم باعتباره اسم عام للعاصمة المصرية فقد يفسر لنا هذا استخدامهم اسم طيبة للعاصمة المصرية خلال فترة لاحقة في الصعيد، والتى لم يسمها المصريون أنفسهم «جبا D b3».

ونجد ضروبًا مختلفة لاسم أسبرطة Sparta حيث يطلق على مواقع كثيرة داخل وخارج اليونان. ويبدو أنها مأخوذة عن الاسم المصري «سباط Sp3t» بمعنى ولاية أو مقاطعة أو عاصمة المقاطعة. وتتأكد لنا العلاقة مع أسبرطة البيبليوزينية عن طريق التوازى بين سباط Sp3t المصرية التي يشبهونها بصورة ابن آوى رمز الإله أنوبيس وبين عقيدة أسبرطة التي تؤمن بالكلاب وعبادة هرميس المعادل الإِغريقى للإِله أنوبيس. وعادة ما يلخصون هذا باسم «ليكى دايمون Lakedaimon» بمعنى «الروح المولول»، والتى قد تكون نقلًا عن اسم المكان المصرى كا انبو K3 inpow أو كانوبوس Canopus أى روح أنوبيس.

كذلك فإن الاسم أثينا Athena، والاسم أثينز Athens اسمان مصريان كما هو واضح، وحسب رأى أفلاطون وكثيرين من الكتاب الإِغريق ثمة رابطة وثيقة تجمع بين المدينة الإغريقية ومدينة سايس المصرية على الحدود الغربية والمتاخمة لليبيا في الدلتا. لقد ارتبط البلدان ببعضهما نظرًا للاعتقاد السائد آنذاك بأن إلهة واحدة هي التي أسستهما وهى الإِلهة نيت (Neit) المصرية، والإِلهة أثينا في اليونان القديمة انظر: Plato, Timaeus: 21.

والآلهتان متشابهتان ليس فقط في العصور الكلاسيكية، ولكنهما أيضًا متشابهتان في الأيقونات التي تصورهما، إذ ترتبطان بصورة درع لكل منهما

على هيئة 8 في الألف الرابعة قبل الميلاد في مصر؛ وفى الألف الثانية ق.م. في كريت ومسينيا؛ وفى الألف الأول ق.م. في أثينا اليونانية.

وكانت جميع أسماء المدن المصرية لها أسماء دنيوية وأخرى دينية. في وقت واحد، مثال ذلك بلدة سايس اسمها الدينى «حت نت Ht Nt» بمعنى بيت أو معبد الربة نت. ونلاحظ في أماكن مصرية أخرى أن حت – Ht تتحول إلى أت -أو آت- في اللغتين القبطية واليونانية. وقد يفسر لنا هذا نشأة المقطع الأول من الاسم أثيناى Athenai. وربما جاء الثاني من إضافة الحرف المتحرك أ A إلى أول الكلمة نت. وهذا ما يشير إليه أسماء آلهة مماثلة «عنات Anat وعنايتيس Anaitis» التي عثر عليها في المشرق، وفى إيران. وإدغام حرف العلة في Neit يوازيه ما حدث عند كتابة أثيناى Athenaie في أدب هوميروس. واختفت النهاية Ts في اللغتين المصرية والإِغريقية. ومن ثم نجد أن اسم المدينة مثال جيد للمطابقة الصوتية وللدلالة اللفظية وتطورهما. وهناك شهادة قديمة على هذا أيضًا. ذلك أن خاراكس البرجمانى Kharax of Pergamon كتب في القرن الثانس الميلادى يقول: «إن مدينة سايس عند المصريين يقال لها أثينا».

انظر: Fm.Hist.Gr.IIIG39 ويتضح لنا هذا بجلاء إذا ما طابقنا بين «حت نت Ht Nt» وأثيناس. إذ بدون هذا يغدو الكلام رطانا بلا معنى.

والقول إن الإِغريق استخدموا ذات الاسم للربة ولمدينتها إنما يتسق تمامًا مع عادة المصريين في مخاطبة الآلهة والمقدسات أو الإِشارة إليهم من خلال مقاماتهم حيث يقيمون. والمثال النموذجي الكلاسيكي لهذا هو اسم فرعون المأخوذ من «برعا Pr'3 بمعنى» «البيت العظيم أو القصر».

ومثال آخر، هو «بر وجيت Pr Wdyt» بمعنى بيت وجيت إلهة الخضرة والخصب والثعابين، وقد ظهرت هذه في منطقة الدلتا أثناء الفيضان. وثمة مخطوطة مصرية عثر عليها في كريت تذكر عبادة وجيت Wdyt، كما أن هناك عديدًا من التماثيل الصغيرة لإِلهة جميلة تمسك الثعابين بيديها. معنى هذا أنه من المقبول عقلًا وعلى أساس شواهد لغوية، وكذا الأيقونات أن نربط وجيت Wdyt بإلهة الثعابين «مينون Minoan» وأفروديت، ولن نجد صعوبة في القول إن أفروديت مشتقة من برو جيت Pr Wdyt. وقد اعتاد المصريون دائمًا البدء بمتحرك قبل السواكن الاستهلالية، وكثيرًا ما تتحول «و W «إلى «أو O» في الكلمات الدخيلة في اليونانية. ولنتأمل كمثال اشتقاق الكلمة اليونانية «بونتوس Pontos» بمعنى «المحيط البعيد والأرض التي وراءه» ونقارنها بالكلمة المصرية «بونت Pwnt» وتعنى «الأرض البعيدة التي نصل إليها بالبحر». وكذلك اسم الإِله أوزيريس المأخوذ من وزير Wsir.

وعلى العكس من كلمة أثينا Athene التي ليس لها أصل في اللغة الهند – أوروبية نجد أفروديت إذ يقال إن لها أصلًا في هذه اللغة، ولكنه قول مردود وغير مستساغ البتة. إذ يقال إن الجزء الأول من اسمها مشتق من «أفروس Aphros» بمعنى «الزبد» والمأخوذة هي نفسها من الكلمة الكنعانية «أبار à pàr» بمعنى الغبار – ولكنه قول لا يفسر الكثير، وإذا تأملنا الأساطير التي تحكى ميلادها من زبد البحر سيتضح بجلاء مدى زيف الأصل اللغوى المزعوم.

ربة أخرى من أرباب الإغريق مصرية الاسم على نحو مستساغ تمامًا وهى الربة «حيكات Hekate» وصورتها عجوز سحرية شمطاء ذات اهتمام خاص بالخصب، ونجد في مجمع أو هيكل الأرباب المصريين الربة «حكت HKT» وهى امرأة عجوز في صورة ضفدعة ومقترنة بالسحر «حقًا Hk3» والبعث في توالد جديد بعد الموت والتي ارتبطت بشكل ما، حسب ما كان شائعًا، بالخصوبة الفريدة للضفدعة. والاحتفاظ بالحرف ت T الأخير هنا، بينما سقط من اسم الإلهة نيت ليس حجة على أى منهما، فالاستعارات المتبادلة بين اللغات لا يمكن تعقّب آثارها بنفس دقة العلاقات الوراثية للجينات. وهكذا فبينما نجد الأحرف الاستهلالية في «أنت Thou» هي «دي du» و«تى Tu» واليونانية «سو Su» تتبع نظامًا عامًا معروفًا للتحولات الصوتية فإن الاستعارات من اللغات يمكن أن تتولد عنها أشكال كثيرة جدًّا وتكون جميعها مأخوذة عن جذر واحد. ولنتأمل على سبيل المثال الكلمة الإنجليزية «كانتاتا Cantata» وتعنى قصة غنائية وكذلك الكلمتين «شانت Chant» بمعنى أغنية أو أنشودة و«شانتى Shanty» بمعنى نشيد البحارة وهما من جذر رومانى «كانت - Cant».

وحرى بنا أن نوازن بين الأصول اللغوية لأسماء ثلاثة أرباب وبين اسم إله ذكر. إن الكلمة Ares هي كلمة هند – أوربية بمعنى «نبيل». واستخدمت هكذا للدلالة على عديد من الآلهة. والإله المعروف الآن بهذا الاسم كان يسمى «إنياليوس Enyalios أو إنيو Enyo» في الخطية بى B وعند هوميروس، وكان إله الحرب عند المصريين يدعى «إن حرت In Hrt» وانتقل بعد ذلك في اليونانية باسم «أونوريس Onuris»، ولن نجد صعوبة تذكر من الناحية الصوتية في هذا الاشتقاق حسبما ذكرنا آنفًا عن الخلط بين آر/آى r/i.

وكثيرًا ما يقال عند اقتراح هذه الأصول اللغوية أن مصادفات التوافق كثيرة، وأن المرء بإمكانه أن يجد بالمثل تشابهات كثيرة بين أى لغتين، بيد أننى أرفض هذا الدفع على مستويين.

أولًا: أننى لم أستطع البتة أن اكتشف أوجه تشابه مماثلة بين اليونانية وبين لغات من شرق آسيا أو لغة البانتو.

ثانيًا: ليس ثمة ما يدعو إلى أن تكون اللغات الأخرى من مناطق نائية واعدة أكثر من غيرها. وحتى لو قبلنا هذا جدلًا فثمة فارق كبير وحاسم بين وضع تناظرات وتماثلات بين لغة الجونكين Algonquin. (من لغات قبائل هنود أمريكا الشماليين – المترجم) واللغة اليونانية على الرغم من بعد المسافات الفاصلة بينهما زمانًا ومكانًا، وبين كشف أوجه التماثل بين اللغتين المصرية واليونانية. ففى حالتنا الأخيرة ليس الأمر قاصرًا على التجاور الزماني والجغرافي وإنما ثمة تقارير واسعة الانتشار أكيدة المضمون عن صلات ثقافية وثيقة بينهما.

أما عن أسماء الآلهة فإن هيرودوت يقرر بوضوح لا مزيد عليه أن: «أسماء جميع الآلهة تقريبًا جاءت إلى اليونان من مصر». انظر: Histories, II: 49. هذا الإقرار من هيرودوت لم يصادف. أى معارضة أو تحد في الزمن القديم، ويجب أن نؤكد، علاوة على هذا، أن أسماء الآلهة اليونانية الوحيدة التي ترجع أصولها إلى أسماء هند – أوروبية هي لإلهين فقط: هستيا Hestia وزيوس Zeus، بل إن الاسم الأخير تحيط به مشكلات من ناحية علم الأصوات في اللغويات.

ويقدم لنا «هيرودوت» في كتابه الثاني تفاصيل عن تشابهات عقائدية كثيرة بين النظام الديني المصري والنظام الديني الإغريقي، ويقرر صراحة أن الرابطة بينهما وثيقة، وأن النظام الديني المصري أقدم كثيرًا مما عند الإغريق فلابد لهذه الأسباب أن تكون مصر هي المنشأ لهم جميعًا. انظر: II; 49. ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن جميع كتب هيرودوت في جامعة أكسفورد مسموح بالاطلاع عليها فيما عدا الكتاب الثاني المشار إليه هنا. وليس الموقف في جامعة كيمبريدج بهذا القدر من السفور وإنما تم إسقاط الكتاب الثاني مع بعض الكتب الأخرى.

وثمة أوجه تماثل تفصيلية كثيرة داخل منظومة الأساطير المصرية والكنعانية والإغريقية انظر: Astour; 1967، مثال ذلك أن أسماء البعض من أشهر أبطال الإغريق تفتقر إلى جذور هند – أوروبية ولكن لها جذور واضحة ومقبولة عقلًا سامية ومصرية. ولقد برهن الأستاذ «أستور» على أن الاسم «بلليروفون Bellerophon» (بطل كورينتى في اليونان استطاع من فوق صهوة جواده المجنح أن يقتل برمحه الوحش الخرافى – المترجم) مأخوذ من بعل لارافون Baàlràphon» «إله الشفاء من الأمراض» انظر: Astour, 1967, 259–260، وحسب التراث الإغريقى فإن ممنون هو فرعون مصرى، وأيضًا فاتح أثيوبى امتدت فتوحاته حتى الأناضول.

ولكن في ضوء مخطوطات ميت رهينة أصبح واضحًا الآن أن الصواب هو اشتقاق اسمه من أمنمحات imn m ht وهو اسم عديد من فراعنة الأسرة

الثانية عشرة، ويشار إلى أحدهم باعتبار أنه قاد غزوات تجاه الشمال، وإذا اعتبرنا هذا الاسم الذي يطلق على غاز كبير شأنه شأن اسم قيصر، أو شارلمان إنما هو لقب ملكى، فإن هذا سوف يفسر لنا اسم أجا ممنون Agamemnon حيث أجا تعنى العظيم ومن ثم يكون الاسم هو ممنون الأعظم أو الأكبر.

وعلى الرغم من الصورة الشائعة عن أخيل أنه بطل آرى عظيم، إلا أن من المتعذر تفسير اسمه في ضوء لغة هند – أوروبية. ذلك أن أول مكونات اسمه هو ذلك الاستهلال ذو الطابع السامى الذي يتكرر كثيرًا جدًا: «أهى - Ahi» بمعنى «أخى يكون..». ونجدها في أخيرام Ahiram… إلخ. والمكون الثانى من الاسم أكثر غموضًا. والملاحظ أن الاسمين الآخرين لهذا البطل وهما بليوس Peleus وبلياديس Peliades مشتقان من الاسم المصرى بارو P3 rw بمعنى الأسد. ويتسق هذا تمامًا مع التناظرات الكثيرة التي رآها هوميروس بين البطل والحيوان. ويحدث أحيانًا التفرقة بين بيليوس وأخيل فيقال إنه أباه. ويفسر لنا هذه اللاحقة الدالة على النسب في الاسم a/Ides، وهذه اللاحقة ليس لها جذر هند – أوروبى ويتعين القول بأنها مأخوذة عن الكلمة المصرية إد id بمعنى طفل أو ابن.

وهكذا يبين لنا أن الإِلهيات والأساطير، شأن أسماء الأماكن الجغرافية، تمثل برهانًا يدعم بصورة ماحقة غلبة النموذج القديم على النموذج الآرى، صفوة القول في ضوء المعايير السبعة المستخدمة للمقارنة بين النموذجين نجد أن ثلاثة منها وهى الأسباب الذاتية الجوهرية، والوثائق، والشواهد الأثرية تنزع إلى إيثار النموذج القديم، أما المعايير الأخرى وهى اللغة، وأسماء الأماكن الجغرافية والإِلهيات والأساطير فإنها تدعم هذا النموذج القديم دعمًا مطلقًا.

وسوف نناقش في دراسة قادمة التطبيقات الأخرى للنموذج الآرى في مجالات تأريخ الأصول التي نشأت عنها السياسة والعلم والفلسفة في اليونان القديمة، وهى الدراسة التي تنتهى بنا إلى نتائج مماثلة.

وقد يسأل سائل عن علاقة هذه المشكلة التأريخية المبهمة بعصرنا الراهن، ما حاجتنا إلى إثارة زوبعة في الدراسات الكلاسيكية، وما تحمله من غوامض وأسرار لا ضرر منها؟ وإجابتى على هذا أسوقها على مستويين: الأول: أننى أؤمن بأن من الأهمية بمكان منهجيًا مهاجمة الثقافة الرومانسية التي تؤالف بين النزعتين الرومانسية والوضعية، إذ ترى أن ما لا يثبت بشأنه برهان فهو بعيد عن بحثه داخل إطار العقل، وهذا قول مضلل مرتين ذلك لأنه يضفى صورة مبالغًا فيها وأحيانًا يضفى توقيرًا خاطئًا لما يصفه بأنه «يقيني» ومن ثم يستخدمه للحيلولة دون أى تقييم مثمر على أساس من المعقولية.

ثانيًا: أن الثقافة الرومانسية استثمرت هذه التقنية المزدوجة لترسيخ أسطورة تزعم عزلة أوروبا عن بقية العالم وتفوقها عليه، وهو زعم خاطئ ومضلل تاريخيًا، وضار وخبيث سياسيًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث

«أثينا إفريقية سوداء» منطلق مواجهة

سقط حجر في البركة الآسنة، وتحركت دوائر المياه تستثير فكر وخيال من يحملون هجوم ثقافة مصر ومستقبلها، لكي يجهدوا أنفسهم التماسًا لطريق قويم، واستعدادًا لمواجهة ثقافية ساخنة مع أعداء ثقافة مصر التاريخيين في المنطقة. لا ضير من أن تتعدد الآراء والاجتهادات إذا صدقت النوايا، وقد ترتفع الأصوات، وتستعر حمى الغضب البريء حتى تتجاوز حدود الروح الأكاديمية فيدعو أحدهم إلى إلقاء أعمال جادة ومجهدة في صندوق القمامة، اللهم إلا إذا كانت هذه عبارة أكاديمية موضوعية لا أعرفها، ولكنها دعاوي، إن أخطأت التعبير إلا أنها مغفورة طالما وأن صاحبها أحب مصر كثيرًا؛ وحقًا كم كان من الحب ما قتل.

وليس غريبًا أبدًا أن يشتعل الحماس وتشتد الغيرة على مصر ونحن نستعيد معالم طريق مهجور، ونلتزم نهجًا جديدًا في تناول ظواهر الثقافة والتاريخ الاجتماعي لم يعهده كثيرون. ولكن أشد ما أحرص عليه هو أن تتضافر وتتركز الأنظار حول هدف قدسي، هو تأكيد دور مصر التاريخي في وعي الإنسان المصري المهيض، ليكون وعيه الجديد أساسًا ووفاء وتجسيدًا لولاء عقلاني لشخصيتنا التاريخية في وحدتها، التي عانت من مؤامرات طمس معالمها وإنكار دورها، حتى بائت تعاني من متلازمة أعراض أسميها اختلال الأنا ... ثم أضيف صمت علمائنا الذي يصل إلى حد كتمان شهادة حق وحجبها عن الكافة.

نحن لا نسعى إلى تجميل صورة مصر اصطناعًا، ولا أن نزيف أحداث التاريخ كما يفعل خصومنا، بل نلح في بذل الجهد لرد الاعتبار، ونصوغ صورة صحيحة من واقع التاريخ، وغرس حس تاريخي صادق عن مصر الحضارة ذات العمق العريق، مع الإيمان بأن هذا الوعي مقرونًا وملازمًا لنهضة علمية عصرية في مجال الإبداع الفكري والإنتاجي هما أساس تأكيد الوجود المصري والفعالية المصرية الإقليمية، ومن ثم المواجهة الصحيحة، والخطو في ثقة نحو المستقبل.

أقول هذا بمناسبة الحوار النقدي الدائر بشأن ترجمة كتاب «أثينا أفريقية سوداء» لمؤلفه «مارتن برنال». هذا الكتاب الذي أقر المجلس الأعلى للثقافة ترجمته ضمن خطة تستهدف تنوير الإنسان المصري بواقع عصره، وأيضًا بماضيه المصري الذي أهمله التاريخ. ويباشر ترجمة الكتاب الذي صدر منه مجلدان حتى الآن، مجموعة من خيرة أساتذة الجامعة المتخصصين وأصدقهم

إيمانًا بمصر ودورها، وأوضحهم فهمًا لطبيعة المناخ الشائك المحيط بواقعنا الراهن واحتمالاته المستقبلية، وأقدرهم على تمييز الخبيث من الطيب؟

مدار النقد أربع نقاط:

الأول: أن برنال غريب عن التخصص الأكاديمي لموضوع الكتاب، ومن ثم ليس له الحق في أن يدلي برأي في غير تخصصه.

الثاني: أنه سياسي الهدف، أي أنه مغرض فالسياسة هوى العلماء منه برأ.

والثالث: هواجس عن نزوغ صهيوني خفي وخبيث.

والرابع: النقلة غير المبررة ظاهريًا من الشرق الأقصى إلى الشرق الأدنى عقب المصالحة بين مصر وإسرائيل. والنقاط الأربعة يجمعها معًا إطار واحد: الغربة عن التخصص العلمي والنوايا السياسية المستترة لصالح عدو تقليدي لمصر هو إسرائيل، مع الاستشهاد بأن جامعات عريقة مثل جامعة هارفارد رفضت نشر كتابه.

والسؤال هل حقًا « مارتن برنال» أعطى في خبث جهده العلمي تقدمة سرية ماكرة على مذبح المعبد الإسرائيلي وفاء لجذور ودماء قديمة تجري في عروقه؟... إذا كان ذلك كذلك فقد أخطأنا الطريق حين اخترنا كتابه متحمسين لترجمته وليكون منطلقًا لمجابهة ثقافية مستقبلية تدعمها كتابات أخرى خاصة من علماء مصر.

أنا لا أريد أن أدافع عن برنال فهذه قضيته، ولكنني أدافع عن اختياري وحماسي لترجمة الكتاب إلى العربية، فأنا صاحب اقتراح ترجمته وتحمست له ضمن مجموعة متماثلة من الكتب عن تاريخ مصر القديم منها، كتاب « التراث المسروق» الفلسفة الإغريقية فلسفة مصرية مسروقة. وأقول بكل المسئولية إن سبب حماسي أن مصر التاريخ الحضاري الرائد، أي جذورنا اقتلعت عسفًا في محاولات متعاقبة من الغزاة على اختلاف أجناسهم، لزعزعة وجودنا، وتقويض أركان تماسك الشخصية المصرية.

والقضية الملحة الآن كمقدمة أساسية للنهضة وفريضة غائبة هي إعادة بناء الشخصية المصرية في وحدتها التاريخية. ثم ليس دفاعي اجتهادًا بل استشهاد بواقع دون السقوط فريسة في متاهة الهواجس والمخاوف من لا شيء، ثم ثقة بالنفس وبأننا نملك العقل والإدارة والقدرة على أن نفيد بعقلانية من المعلومة في إطار نهضة منشودة. فإن المعلومة سلاح ماض في يد من يتناولها صدقًا ومهارة لا تزييفًا وتلاعبًا. أما الخوف فإنه يورث العزلة والجمود وهو بداية الطريق إلى العجز والتهلكة.

وعن برنال وغيره أقول: إن المفكر والعالم والكاتب والفنان هو انتماء ودور في المجتمع المحلي والعالمي، والانتماء له إحداثياته: انتماء إلى عصر، وإلى ثقافة قومية / عالمية، وإلى تثقيف انتقائي خلال التنشئة الاجتماعية، وليس التعليم فقط، وإلى مناخ فكري وظروف حياة فردية واجتماعية. إذ أن هذا كله يحدد ويصوغ الدور المنوط بالمرء ثم يعبر عنه سلوكه مصداقًا لفكره، وتأسيسًا لروابطه الاجتماعية باعتبار أن الترابطات الاجتماعية هي ركائز النشاط الإنساني ومجلاه التنفيذي على الصعيدين المحلي والعالمي، وفي ضوئها تتمايز الانتماءات تقاربًا وتباعدًا.

فماذا عن برنال، يؤكد أو ينفي، هواجس شغلتنا عن المضمون وهي استنتاجات مركبة وليست وقائع صريحة.

ببساطة وإيجاز، وراء مارتن برنال خلفية تاريخية ثقافية وعلمية موسوعية، تدمجه في حياة المجتمعات من حيث عالم ومفكر، وتنأى به عن التخصص العلمي بالمعنى الضيق المحدود استوعبها منذ طفولته إلى أن تخرج في الجامعة على أيدي علماء ثلاثة:

أولًا: الجد «الآن جاردنر» عالم المصريات الذي أعطى حياته لدراسة المصريات لغة وآثارًا، وألف كتابًا عنوانه: «النحو المصري القديم وأهداه إلى حفيده يوم أن أصبح شابًا، وقال له كلمة وهو يهديه الكتاب كأنها نبوءة عراف. ظلت الكلمة محفورة في أعماق مارتن إلى أن حان وقت طفت على السطح، إذ قال له «لا تدرس اللغة المصرية قبل أن تعرف اليونانية جيدًا.

وقد كان الجد مهتمًا أيضًا بعلم اللسانيات، أعني أنه باحث علمي بغير ضفاف، وإن احترم التخصص دون أن يكون قيدًا أو معزلًا، ثم إن هذا المناخ جعل اللغة عند الحفيد مفتاحًا لحل المشكلات.

ثانيًا: الأب جون برنال عالم الفيزياء ومؤسس علم العلم.

عالم موسوعي وسياسي – مرة أخرى أقول سياسي، يرى العلم ظاهرة حضارة لها شموليتها ودورها الوظيفي في المجتمع، وعني ببيان السياق الاجتماعي للعلم، وترسب هذا كله في ذهن «مارتن برنال».

ثالثًا: العالم الإنجليزي «نيدهام» Needham عالم الكيمياء الحيوية وعلم الأجنة وقد أبدع في مجال تخصصه وحاز شهرة عالمية. وهو أيضًا عالم موسوعي إنساني النزعة، سياسي التوجه، عني بترابط العلوم في التطور التاريخي. عشق حضارة وعلوم الصين، وهو الذي حبب إلى «مارتن» الصين منذ صباه فاختارها موضوعًا للدراسة الأكاديمية، وهو الذي فتح عينيه على تطور العلوم والحضارات وتفاعلها الثقافي، وخرج «نيدهام» من إسار عقيدة

التخصص الأكاديمي الضيق وألف في الحضارات وفي تطور تاريخ العلوم وأسهم بعلمه من أجل كلمة صدق لصالح قضايا الشعوب ... شعوب العالم الثالث ضحية أوروبا بعامة وشعوب الشرق الأقصى بخاصة.

اصطلحت هذه العوامل تاريخيًا من خلال التنشئة الثقافية الاجتماعية على صياغة فكر وثقافة ونهج «مارتن برنال» في تناول ظواهر التاريخ والحضارات: موسوعية العلم والتزام بالوظيفة الاجتماعية للعلم، ثم السياسة موقف معبر عن ذلك في جملته، وإيمان بأن العالم وعلمه رسالة مجتمع وليس العلم تميمة للحفظ.

يضاف إلى هذه العوامل المناخ الثقافي والعلمي والسياسي السائد في أوروبا والعالم، وهو مناخ مناهض للنزعة المحافظة ويشكل ما يسمى الثورة المضادة في الغرب. وعي «مارتن برنال» حياته بعد الحرب العالمية الثانية أي مع أزمة أوروبا وانحسار هيمنتها.

وكانت ذروة الأزمة في الستينات، وظهرت مدارس فكرية ومناهج بحث جديدة وتأويلات كثيرة، وتصدعات وصراعات داخل الغرب، وظهرت حركات الطلاب والجماهير للتحرر من الخوف ... الخوف من محرقة نووية؛ والخوف على المستقبل ومنه ... وثورة ضد الصفوة وطموحات وتطورات أفرزها التقدم العلمي والتكنولوجي ... واعتلت بلدان آسيا وأفريقيا – المستعمرات سابقًا – مسرح الأحداث العالمية. لم تعد أوروبا هي الحداثة والحضارة ... بل تكشف زيف الكثير من الآراء التي سادت وراجت باسم التنوير والنهضة والأكاديمية ... لقد تعددت منابت الحضارات؛ وتضافرت الجهود لإسقاط القناع ... لكي ينقد العقل الأوروبي ذاته وكان مما أنتقده تلك القضية التي تصدي لها «برنال».

استحدث علماء أوروبا باسم الأكاديمية، وفي ظل الهيمنة الاستعمارية الاقتصادية والثقافية مقولة زائفة أصبحت هي الإطار المعرفي السائد، تقضي هذه المقولة بتقسيم البشرية إلى أجناس ثلاثة آري وسامي وحامي. ويقول «مارتن برنال»: إن هذا التقسيم تعبير نظري عن رؤية للهيمنة الاستعمارية ويمثل نزعة عرقية سافرة شاعت في فكر الأوربيين. وتقول هذه النزعة التي اقترنت، كما يقول « برنال» بالرومانسية في نهاية القرن 18، إن السلالات أو الأجناس غير متكافئة فيزيقيًا وعقليًا وتاريخيًا، وأن من الخطأ امتزاج الأجناس، وإن المدنية المبدعة الخلاقة بحاجة إلى جنس نقي، والحفاظ على نقاء الجنس دعامة الحفاظ على الحضارة الأوروبية. ولهذا، في رأيهم، ليس مقبولاً القول: إن الإغريق نتاج مزج بين ما هو أوروبي وما هو سامي وأفريقي، فاليونان أوروبية آريه خالصة، والجنس الآري هو الجنس الأرقى وله المجد، فهو الذي أبدع المنهج العلمي والعقلانية.

يعارض «مارتن برنال» بشدة هذا الرأي ويؤلف كتابه ليفنده، ويتسق في موقفه هذا مع الثورة الأوروبية المضادة الناقدة للعقل الأوروبي ولمفهوم الحداثة الأوروبي، مثلما يتسق أيضًا مع موقف بلدان المستعمرات الناهضة. ويوضح «برنال» أن هذا النموذج الآري أخذ صيغتين: صيغة متزمتة تحصر كل الفضل في إطار الرجل الأبيض أو الآربين وحدهم وتستبعد سواهم، وصيغة أخرى رحبة تسمح بإضافة الساميين وحدهم دون الأفارقة باعتبار أن السامين أسهموا بالدين والشعر. ويرد هذا القدر من التسامح لا إلى عقلانية موضوعية أكاديمية أوروبية بل إلى جهود اليهود.

يقرر «برنال» أن اليهود في صراعهم ضد النموذج الآري لإثبات وجودهم التاريخي حرصوا على أن يحصروا مدلول السامية في إطار اليهود وحدهم دون العرب، أي اصطنعوا له مدلولًا سياسيًا دون المدلول اللغوي. وأوضح أن الكتاب اليهود صنفوا مؤلفات عديدة لإثبات الروابط المشتركة بين الثقافة العبرية والهللينية، بل والتناظر بين الأساطير السامية والإغريقية. وعنى اليهود بتقديم دراسات ايتمولوجية سامية (أصول الكلمات وتطورها التاريخي) لتأكيد علاقة القرابة اللغوية، ويقول متحسرًا: «على عكس الدراسات الايتمولوجية السامية لم يهتم أحد بدراسة المفردات المصرية التي استعارتها اليونانية القديمة. وبحلول عام 1860 بدأ نشر قواميس اللغة المصرية القديمة واتخذت الأكاديميات موقفًا متعنتًا يحول دون دراسة تحليلية ومقارنة ايتمولوجية للغة المصرية» فهل هذه حسرة صهيونية؟

ويؤكد أن العطف العالمي لم يكن هو علة التسامح مع اليهود بل إن السبب الحقيقي هو جهود اليهود أنفسهم، علماء وكتاب وساسة؛ وبلغت هذه الجهود ذروتها مع نشأة الكيان الإسرائيلي الذي كان له دور أخطر من المحرقة العالمية. فهل لنا أن نقول إنه هنا صهيوني لأنه أغفل جهود العرب كتابًا وعلماء وساسة ومؤسسات، لتأكيد دور مصر القديمة ودراسة اللغة المصرية، وتحليل أصولها وتطورها وتفاعلها مع لغة اليونان قديمًا!؟ أحسب أن ليس لنا أن نطالبه بأن يكذب على التاريخ، وإن كانت لنا جهود وبطولات أكاديمية في هذا المجال، فليحكها لنا العلماء.

وأكد «برنال» في حوار بيني وبينه أنه يعني بالساميين المفهوم اللغوي أي العرب والعبرانيين معًا سكان شرق المتوسط، ولكننا نحن الذين خضعنا للإطار المعرفي الذي صاغه اليهود سياسيًا، إذ قالوا أو أشاعوا أن الساميين هم اليهود، ومعاداة السامية تعني معاداة اليهود، أما العرب فهم خارج هذه الفئة.

وهكذا فالقضية المحورية هنا هي أوروبا والإنسان الأبيض أو الجنس الأرقى المزعوم في مقابل حضارات الشعوب السوداء والصفراء والساميين بعامة

دون إسرائيل على وجه التخصيص، أي الأجناس واللغات بعامة، وإن جاهد اليهود وأفادوا بذلك على مدى العقود ولم نحرك نحن ساكنًا.

وفي إطار الثورة المضادة لهيمنة الغرب استجاب «مارتن برنال» لما في أعماقه الذي غرسته التنشئة الثقافية. عرض «مارتن» نفسه للسجن مرات دفاعًا عن آرائه ... إذ شارك في العديد من مظاهرات الاحتجاج المناهضة للحرب الأمريكية في فيتنام. وفي 1956 وقتما كان في الخدمة العسكرية اعتاد أن يخلع سترته العسكرية ليشارك في تظاهرات الاحتجاج في بريطانيا ضد العدوان الثلاثي على مصر ... والعدوان الثلاثي الذي شاركت فيه وخططت له إسرائيل ... فهل دفعته نزعته الصهيونية إلى أن يعرض نفسه لعقوبة السجن عشرين عامًا؟

والقول إنه غريب عن فن البحث الأكاديمي قول مردود، إذ لا نأخذ به على إطلاقة ولكن بشروط، فإن تاريخ الاكتشافات العلمية زاخر بأسماء أعلام وصلوا إلى إبداعاتهم في غير مجال تخصصهم مثال ذلك باستير وغيره. ويكفي أن أشير هنا إلى عالم معاصر فذ هو «توماس كوون» Kuhn صاحب نظرية متميزة في تطور تاريخ العلم أودعها كتابه المترجم إلى العربية «بنية الثورات العلمية»، فهو في الأصل عالم فيزياء، ولكنه تحول إلى فلسفة تاريخ العلم، وأبدع نظريته التي انعقدت لدراستها عدة مؤتمرات دولية. ويقول «توماس كوون» إن إبداع النظريات غالبًا ما جاء على أيدى علماء شباب وهم لا يزالون في مقتبل حياتهم العلمية، أو على أيدي علماء وافدين من خارج ميدان التخصص، أي غرباء أو هواة أو لنسمهم ما نشاء، وذلك لأنهم يرون القضايا والمشكلات في غير الإطار التقليدي الحاكم، وتتكشف لهم نظرية جديدة لحل اللغز القائم. وهناك كثيرون مثل الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو الذي أحدث ثورة في منهج دراسة التاريخ باعتباره بنية متكاملة وخلفية تصوغ وعي الحاضر ليغدوا هذا الوعي سلطة زائفة مهيمنة.

ونجد من يستشهد بأن جامعة «هارفارد» مثلًا لم تنشر كتاب «برنال»، وكأن جامعة «هارفارد» وغيرها براء من النزعة الصهيونية. وأبسط قواعد المنهج الأكاديمي في الدراسة النقدية أن تدرس تاريخ المؤسسة أو الشخص موضوع النقد، وبيان الجذور الثقافية والمواقف الحياتية ومصادر الإنفاق. ومن ثم فقد كان الأجدر بالناقد أن يدرس تاريخ هذه الجامعات وتوجهاتها، ومن الذي أسسها وأنفق عليها من كبار أثرياء اليهود، فإن من أهم من تبرعوا لها ملك المال اليهودي الصهيوني روتشيلد وعائلته وغيره من اليهود حتى الآن. وطبعًا لم تكن هذه المنح بدون مقابل ولا من أجل أن ترفض الجامعة دراسة صهيونية، وكم من دراسات صدرت باسم الجامعة وهي دراسات دعائية وغير علمية.

وليس غريبًا أن تسعى جامعة هارفارد عند إنشائها إلى تأكيد تمايزها عن جامعات أوروبا بأن أبدت اهتمامًا كبيرًا باللغات العبرية والسريانية والآرامية، وغنى عن البيان دلالة هذا التوجه.

كما عمدت الجامعة إلى التقليل من الاهتمام بالعلوم الطبيعية، والرياضيات في محاولة منها خلال القرن 19، للحد من نظريات علمية ناشئة مثل نظرية تطور الكائنات الحية، ونظرية تطور الأرض وغيرهما لتعارضهما مع اللاهوت. وقادت الجامعة حملة بقيادة «آزا جراي» Asa Gray ضد هذه النظريات بالاشتراك مع عدد من رجال الدين، وأشرفت على إصدار عدد من الكتب غير العلمية للهجوم على هذه النظريات العلمية، من ذلك مثلًا كتاب بعنوان «ديانة الجيولوجيا والعلوم المرتبطة بها» تأليف «إدوارد هتشكوك» أستاذ الجيولوجيا واللاهوت الطبيعي بالجامعة عام 1860. وقد حاول «هتشكوك» في كتابه هذا إعادة صياغة كتاب عالم طبيعي متميز عنوانه «نظرية تطور الأرض» لمؤلفه ليبل Lyell. وهناك أيضًا «بول شاد بورن» الذي حاول نفس الشيء بالنسبة لكتاب أصل الأنواع «لداروين»، وغير هذا كثير ثم نجد من يستشهد بها على صهيونية «برنال»، وبعده عن الروح الأكاديمية الموضوعية.

ويعارض كتاب «برنال» بشراسة أيضًا الجناح اليميني المتطرف في أمريكا، ولعل أشد الهجمات قسوة يمثلها كتاب كامل مولته الرابطة القومية للعلماء National Association of Scholars وهي إحدى مراكز قوى الفكر اليميني في أمريكا. وقليل من السياسة يوضح لنا السبب، ذلك أن اليمين الأمريكي يحرص على أن تبقى نظرية المحورية الغربية سائدة شريطة أن تنتقل إلى أمريكا زعيمة النظام العالمي الجديد، ولهذا يعارضون مقولة «برنال» الأساسية ضد الهيمنة الغربية أو الأوروبية. فالكتاب يقرر أن الغرب ليس هو المحور، وهذا هو رأي كل الثورة الثقافية المضادة في الغرب. ويرون في كتاب «برنال» تعزيزًا للنزعة الأفريقية والقول بتعدد الحضارات وتكافئها.

ونتساءل عن تحولات «مارتن برنال» في مجال البحث.

لقد تحرك «برنال» تحركات منطقية في إطار ثقافته التاريخية والعلمية والاجتماعية وظروف حياته، التي أشرنا إليها، وذلك حين درس حضارة الصين وتخصص فيها؛ أو حين تحول تدريجيًا إلى حضارات الشرق الأدنى. لقد كانت تنقلاته أو تحولاته ليست وفاء لهدف مسبق مرسوم ومضمر، بل استجابة لمشكلات مطروحة غذتها ثقافته أو تكوينه الثقافي، أو استجابة للغز بلغة «توماس كوون»، واجه «برنال» مشكلات محددة وبحث لها عن حل في غير الإطار التقليدي الذي يقرره العلماء الأكاديميون المتخصصون تظاهرهم أيديولوجية خافية أو معلنة. من تلك المشكلات على سبيل المثال أن أربعين في المائة من مفردات اللغة اليونانية ليس أصلها هند – أوروبي. وضع العلماء

المتخصصون افتراضات عسرة الفهم والقبول، ولكنه تحرك على هدى ضوء يسري في أعماق نفسه غرسته ثقافته. خرج عن الإطار التقليدي ودرس اللغات السامية ومن بينها العبرية. ولكنها لم تشف غلته، وإن أكدت نهجًا جديدًا يدعوه إلى الاتجاه جنوبًا لكشف غموض اللغز، وليس شمالًا.

واتجه إلى مصر، وهنا نعود لنذكر قولة الجد «آلان جاردنر» أو نبوءته حين أهداه كتابه قائلًا: «لا تدرس المصرية قبل أن تعرف اليونانية جيدًا» وبدأ الاطلاع على اللغة القبطية لقربها من اليونانية ودراستها إيتومولوجيا، أي أصول الكلمات وتحليلها.

ويقول «برنال» أدركت فجأة أن هاهنا الحلقة المفقودة.

وكانت هذه هي بوابة الدخول إلى الحضارة المصرية وتأليف كتابه الضخم وإسقاط القناع الزائف عن وجه أوروبا، الإنسان الأبيض في تضافر مع كل الجهود المتمردة في أوروبا والغرب بعامة.

أضيف إلى هذا، وأنا مؤمن بالوظيفة الاجتماعية للعلم، أن حل أزمة مصر يبدأ بتأكيد وحدة شخصيتها، بناء على معطيات علمية صادقة. إن ما يعنينا في كتاب «برنال» حيثيات محددة أولها ما قاله المؤلف صراحة، وهو الحد من الغطرسة الأوروبية وإثبات أن النموذج الأوروبي، بنص كلماته، هو حمل الخطيئة وقد أفلس.

وكم عانت مصر، من بين ما عانت، من عقد الاستعلاء من كل الغزاة المتعاقبين على مدى ألفي عام أو يزيد ولعل هذه آخر حلقاتها.

وثاني هذه الحيثيات أن الحضارة اليونانية ليست أوروبية المنشأ والجذور بل جذورها في مصر أولًا وشرق المتوسط. وقدم فيضًا من المعلومات والاستنتاجات الغائبة عن أذهان المصريين. ويعنيني أن أروج لهذا مقرونًا بحيثيات تؤكد الذاتية المصرية ودورها الحضاري الرائد، الأمر الذي عمد إلى طمسه جميع الغزاة وأبقوا على مصر التاريخ والحضارة مدانة مستباحة. والخطر الداهم الآن، ومن قبل، أن الإسرائيليين انتابتهم عن وعي ومنذ عقود، بل ومنذ التوراة، حمى إعادة كتابة تاريخ مصر، لتدميرنا ثقافيًا، ليصبح فكرهم هو السائد في العالم.

وقد حرصت عند تشكيل لجنة ترجمة الكتاب أن نضع خطة عمل تقضي بإضافة تعليقات، وهوامش نقدية إلى الكتاب، لكي تصدر الترجمة مقترنة برؤية مصرية من خلال المجلس الأعلى للثقافة. فنحن لا نطالب أوروبيا مهما كان تعاطفه معنا، أن يكتب نيابة عنا، وما أحوجنا إلى أن تكون مصر وعلماؤها هم مرجع المصريات في العالم، ورأيت عقد جلسات حوار مشتركة لمناقشة

هذه التعليقات والآراء رغبة في إثرائها والبلوغ بها قدرًا من الكمال، ثم حرصت أن يكون جهد الترجمة والتعليق جماعيًا لمجموع من أساتذة أجلاء. وقد تختلف الرؤية ونهج التناول ولكن لن يفسد الاختلاف حبًا مصريًا هو منطلق وركيزة الجهد المشترك لوجه مصر التاريخ والمستقبل. وهذا لم يحدث كما شئت.

وكم أود أن أجد كتابات لعلمائنا بديلة، وأتمنى أن يكون النقد ليس منطلق هواجس ومخاوف، ولا نوعًا من حرب التطهير العرقي داخل ساحة العلم، بل إثبات خطأ وصواب المعلومات علاوة على منهج البحث ونهج تناول المعلومات.

إن المعلومات التاريخية المكتشفة عن مصر متاحة في الكتب والوثائق والآثار، وهناك الجديد دائمًا، ولكن تباينت نهج التناول وتسابق المغرضون، ونريد نهجًا مصريًا صحيحًا. لندع «مارتن برنال» جانبًا وليتقدم لنا علماؤنا الأفاضل بدراسات بديلة، ولكن شريطة الالتزام بمنطلق رئيسي معاصر هو اتباع منهج البحوث المتداخلة interdisciplinary والتخلي عن منهج البحث الأحادي Monodisciplinary الذي ثبت قصوره، أعني الالتزام بمنهج بحث جامع بين العلوم المختلفة، فهو الآن صيحة العصر، لنعطي صورة متكاملة اجتماعية وفكرية عن حضارة مصر والإقليم في دينامياتها وتناقضاتها، ثم الالتزام بالوظيفة الاجتماعية للعلم، وهو ما يعني اشتغال العالم بالسياسة، فالسياسة في أتقي صورها هي التطبيق العملي للعلم أو قل هي تكنولوجيا العلم في مجال إدارة المجتمع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الرابع

صراع التاريخ والأسطورة

المنطقة الشرق أوسطية أو العربية تعيش مخاض مرحلة سوف تتحول فيها يقينًا العلاقات بين أطراف المعادلة، وتتغير معها العلاقات المكونة للواقع، وربما تتغير هويات بعض الأطراف. وسوف وتكشف أطراف المنطقة يقينًا عن عوامل صراع بعضها كان مكتومًا ولكنه فاعل مؤثر، وسوف يندفع إلى السطح ليكون أشد انفجارًا أو تفجيرًا، وهو ما أسميه «المنفى الفعال» الذي ظل مكبوتًا بفعل قهر سلطوي لا عقلاني ... وسيجرى هذا الصراع في ظل شعار قديم هو صراع الحضارات ولكنه يفقد مقوماته الإيجابية.

أعني أنه سيجرى إلى حين، على نحو ما تشير الدلائل الراهنة، في سياق إطار معرفي قيمي تقليدي موروث لم يخضع لدراسة تصوغه في إطار عقلاني نقدي وقد ران عليه جمود مجتمع راكد فكرًا وإنتاجًا.

وسيجرى أيضًا في ظل ثورة عالمية جديدة: متعددة الأبعاد يغذى بعضها بعضاً، وتخلق نسقًا جديدًا.

1. ثورة معلومات من حيث كم وسرعة المعلومات المتحصلة والمستثمرة.

2. ثورة فكر عالمية من حيث المناهج وأسلوب التناول ومراجعة بدهيات ومقولات سادت قرونًا. ثورة تعيد قراءة الحاضر والماضي في ضوء إنجازات علمية ومنهجية جديدة وإنسان جديد.

3. ثورة اجتماعية اقتصادية من حيث طاقات الإنتاج وأدوات الإنتاج وعلاقات القوى داخل المجتمع وبين المجتمعات والتطلعات إلى الحياة، ودينامية الحراك الاجتماعي ... وفى جميع هذه الحالات القوة والسلطة هما المعرفة العلمية والقدرة على توظيفها في سباق لاهث وعلى مستوى المجتمع ومشاركة كل أفراده.

وصاحب السلطة والسطوة في المنطقة وفى العالم هو صاحب المعلومات وهو الأقدر والأسرع على إبداع المعلومات ومعالجتها واستثمارها ومن ثم فهو المرجع والمصدر وهو أيضًا الأكثر حرية.

وبناء على هذا التصور هناك قوى واعية بحقيقة التطور، وطبيعة الصراع. ولن نجد أمة من الأمم الآن صحت عزيمتها للنهضة أو الاستمرار في تصدرها للساحة إلا وهي تراجع كل هذا، وتعيد صياغة تاريخها ونظامها التعليمي وأنساقها المعرفية وأسلوب التنشئة الاجتماعية لحشد كل هذا في مسيرة

واقعية ولتعزيز زخم الحركة المجتمعية نحو الهدف ... والجميع في سعيهم للمستقبل يراجعون الحاضر والماضي في ضوء مطلب مستقبلي.

أوروبا ... الولايات المتحدة ... اليابان ... الصين ... روسيا ... جنوب أفريقيا ... إسرائيل ... جميعهم يراجعون فيما عدا البلدان العربية. لم تحاول قراءة الحاضر أو الماضي قراءة علمية تدعمها حصانة ديمقراطية المعرفة، أعنى حصانة تقى الباحث بطش السلطان وقوى الظلام ويخضع فقط للعقل. ولا تزال السياسة بمعناها المملوكى والقبلي والفردي هي السلطة ... هي القوة أو السيف مع قوى الداخل ... هي مصدر المعرفة والصواب ... والنتيجة جمود مع أوهام أيديولوجية تحلق في فراغ بعيدًا عن الواقع، وغربة في الزمان والمكان ومن ثم كلام ولا فعل، جمود ولا تطور ... وما يشاء السلطان لا ما يشاء العقل العلمي الجمعي القائم على الحوار الحر.

مملكة اليهود:

وليس ما يجرى على الساحة العالمية مفاجأة جديدة، ولا ما يجري على ساحتنا الـعربية. فالوعي بحركة التاريخ فـي عصرنا الحديث لم يكن غائبًا عن بعض طلائع المثقفين البعيدين عن التعاون مع السلطة الداعين إلى التغيير وأطلقوا صيحة نذير، ولكن لم يعرها المسئولون أذنا صاغية ولم تتحول إلى قوة حرة اجتماعية وطمسها أو تحاشاها المثقفون الطامعون في استرضاء السلطة حتى وإن لبسوا مسوح التنوير والتقدم، وإذا رددوها أفرغوها من مضمونها ومن مدلولها في التغيير الاجتماعي وقنعوا باستثمارها لذواتهم.

أذكر من طلائع المثقفين الواعين المثقف العربي نجيب عازورى.

إذ في كتابه «يقظة الأمة العربية»، الصادر عام 1905 يقول:

«إن ظاهرتين مهمتين متشابهتي الطبيعة، بيد أنهما متعارضتان، لم تجذبا انتباه أحد حتى الآن. تبدوان بوضوح في هذه الأونة في تركيا» (ولم يكن العرب قد تحرروا بعد من نير الخلافة العثمانية ووصايتها على أقدارهم)، هاتان الظاهرتان هما:

1. يقظة الأمة العربية.

2. جهد اليهود الخفي لإعادة تكوين مملكة إسرائيل القديمة على نطاق واسع (وقد كان جهدًا منسقاً شاملاً تركيا العثمانية وأنحاء العالم المختلفة).

ولنا أن نتساءل بعد مضى قرابة قرن كامل من تاريخ هذا النذير: ماذا كان المصير عند العرب ... وعند إسرائيل؟ ما هو الوعي الذي تحكم في حركة إسرائيل وما هو الوعي الذي تحكم في جمود العرب إلى حد الشلل والتمزق والتشرذم؟ ما هو محتوى الوعي الاجتماعي والتاريخي ومدى صدقه العلمي

وارتباطه بمقتضيات حركة المجتمع ونسيج العالم، نسيج الفكر العلمي الاجتماعي؟ مقارنة بسيطة، بل نظرة عاجلة تبدو فاجعة.

إسرائيل حققت انتصارات عالمية ومحلية في مجالات العلوم والسياسة: أبسطها أنها تكونت وأصبحت دولة بسبب العرب، وأضحت حقيقة واقعة اعترف بها العالم واعترفنا نحن بها!! وأخطرها أنها غرست حقها أو شرعية وجودها وتفوقها علميًا واجتماعياً وعرقيًا وتاريخيًا في أذهان العالم المتقدم. وباتت هذه العناصر من المسلمات ... ونحن في غياب ... تركوا لنا عبادة تقديس العجل وخوار العبارات الإنشائية عن الحق السليب، ورطان التمسك به في شهامة لغوية مؤكدين أنه سوف يأتينا حتمًا بجهد الأصدقاء الآخرين ... والآخرون لا يعبدون غير القوة التي نعرف معناها نظريًا في حدود القاموس المحيط ولا شيء أبعد من ذلك.

إسرائيل، عكف علماؤها وباحثوها على إعادة ترتيب أحداث التاريخ انتصارًا لفكرها ... وانتزعت من أعدى أعداء اليهودية وضحيتها اعترافًا ببراءة اليهود ... اعترافًا بحقهم في الحياة وشرعية وجودهم. واعترافا بعدم شرعية أى مناهضة لهم بل وعدم شرعية إدانة مجتمعاتهم في الماضي ... فقد كان الاعتقاد بأنهم قتلة المسيح حائلًا دون حصولهم على حق المواطن العالمي الصالح، والمشاركة بالرأي والفعل أو لنقل استخدام هذا الاعتقاد لأسباب أيديولوجية ...

وكانوا تاريخيًا يتحايلون لكي يفرضوا وجودهم فرضًا على الرغم من الآخر ... وبات وجودهم

الآن اختيارًا من الآخر وتفضلًا منهم. وأعادوا كتابة تاريخ المنطقة من النيل إلى الفرات وقدموه بإلحاح دعائي إلى العالم حتى يغدو تاريخهم إطارًا فكريًا لوعينا بالتاريخ في مصر والعالم العربي.

فقبل قيام إسرائيل بزمن طويل واليهود واعون بحركتهم الاجتماعية التاريخية على الرغم من الشتات. جاهد اليهود عن وعى فـي شتاتهم ضد النزعة الآرية العنصرية البيضاء ليؤكدوا أن الساميين لهم دور عريق في بناء الحضارة الإنسانية دون الحاميين، أي دون مصر والأفارقة بعامة. وعمدوا إلى أن يكون مصطلح السامي المشارك في بناء الحضارة مرادفًا لمصطلح اليهودي أو العبري أو الفينيقي على الرغم من أن المصطلح يتسع حسب المعنى المفترض ليشمل العبريين والعرب معًا. ويعنون بالحاميين أو أبناء حام السود ومنهم المصريون القدماء وهكذا يسلبون دور المصريين القدماء في بناء الحضارة القديمة العريقة وينسبونها إلى قوى أخرى وفدت إلى مصر. وروجوا لهذه المزاعم في توافق مع الأريين العنصريين الذي ذهبوا إلى أن أبناء

الجنس الآري أى الأوروبي الأبيض هم أصحاب الفكر العلمي وبناة الحضارة الأرقى، وأكدوا علامات الاستفهام والاستنكار والتعجب والشك أمام الحضارة المصرية أعنى سلبوا مصر والمصريين مجدهم العريق وأسباب الانتماء.

استبعاد مصر:

واستطاع اليهود بجهودهم في مجال الفكر والسياسة أن يجعلوا تاريخ العالم خلال القرن 19 حوارًا بين النزعتين الآرية والسامية مع حصر معناها في نطاق معنى اليهودية فقط واستبعدوا دور مصر وتاريخها. وخلال عشرينيات القرن العشرين، وهي سنوات الذروة في العداء النظري ضد السامية في أوروبا أقام اليهود الجامعة العبرية على أرض فلسطين إذ أقاموها عام 1920 مما يدل على بصيرة سياسية ضمن مخططهم المستقبلي. وعلى مدى النصف الثاني وعقب الحرب العالمية الثانية تكثفت جهود اليهود في داخل الأوساط الأكاديمية العالمية، ناهيك عن الأوساط الاقتصادية والسياسية العالمية وغيرها دفاعًا عن الجنس السامي وضد مناهضة السامية وتأكيدًا لدور الساميين بمعنى الفينيقيين أو اليهود في بناء الحضارة العالمية وتأسيسها في اليونان القدسية. وظهرت أسماء عديدة تبرز دور الفينيقيين دون مصر إن لم تهاجم أو تنفى دور مصر في التاريخ وهكذا تحالف الساميون وهم هنا اليهود، مع الفكر الآري الغربي في الموقف ضد الجنس الحامى أى ضد مصر بخاصة وأفريقيا بعامة.

من هذه الأسماء ميشيل استور Michael Astour في كتابه من السامية الهللينية Hellena Semitica ومعه سيروس جوردون Cyros Gordon إذ أكدا الروابط المشتركة الوثيقة بين الثقافة العبرية والثقافة الهللينية وقالا إن ثمة تناظرًا مذهلاً بين الأساطير السامية والإغريقية. معنى هذا أن الفينيقيين أى اليهود هم نبع الحضارة الهللينية أو لنقل ساهموا بفعالية في بنائها وأبرز المؤلفان أيضاً أن العداء للسامية هو عداء للفينيقية لأنهما، شأن غيرهما من مفكري اليهود طابقًا بين المصطلحين السامي والفينيقي.

ونذكر أيضًا فلايكوفسكى في موسوعته «عصور في فوضى» من الخروج إلى الملك أخناتون وترجمه إلى العربية د. رفعت السيد ونشرته دار سينا بالقاهرة. وهناك أيضًا دافيد رول David Rohl في كتابه مراجعة الزمن: التوراة من أسطورة إلى تاريخ صادر عام 1995 عن دار: Century London - Publishing وآخرون من علماء التاريخ الذين تخصصوا في المصريات من منطلق أيديولوجي توراتي وإسرائيلي بالمعنى السياسي أيضًا.

وحاولوا جميعًا بطرق شتى وتأويلات عدة لبست ثوب الأكاديمية ومسوح العلم صياغة نظرية تتخذ أحداث وروايات التوراة عن مصر واليهود في مصر

مرجعًا يعيدون على هديه ترتيب الأحداث وتحريك وقائع تاريخنا المصري صعودًا وهبوطًا وفق نزعتهم الأيديولوجية وعمدوا إلى تعديل في التقاويم وإلى التعسف في الاستنتاجات والتأويلات لضمان سيادة الإطار المعرفي القيمي التاريخي الذي اصطنعته التوراة واتخذه اليهود مرشدًا لإعادة صنع التاريخ. أو كما يزعمون هم لتصحيح التاريخ وإعادة الأمور إلى نصابها، إذ يعود شعب الله المختار إلى أرض الميعاد التي وعده الله بها معززاً بحجج أكاديمية كما يزعمون. وطبيعي أنه حين تغدو هذه الحجج لغة سائدة بين جامعات العالم، خاصة مع صمت المصريين أصحاب القضية عن المواجهة، ستشكل هذه الحجج إطارًا معرفيًا مرجعيًا ولغة علم تاريخي وسيادة هذه اللغة تعنى سيادة هيمنة الفكر اليهودي على الأذهان.

يضاف إلى هذا الشق «العلمي» دور الفكر الموروث الذي اختزنته الذاكرة الجمعية اليهودية ويصنع قناعاً اجتماعيًا أو مخيالاً جماعًيا حاكمًا له سلطانه وسطوته في صورة حقائق اجتماعية شغالة يتعامل من خلالها الإنسان مع العالم. ولقد اكتمل هذا الفكر أو القناع الأيديولوجي بالحصول من الفاتيكان على براءة اليهود من دم المسيح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الخامس

مؤامرة الصهيونية ضد مصر

هكذا أصبحنا الآن، وإسرائيل بين ظهرانينا، نواجه في مجال التاريخ وتاريخ الحضارات برؤية صهيونية تناظر تلك الرؤية التي سبق أن أفرخها الأوروبيون وحمل لواءها الألمان نواة لنزعة النازية.

رؤية عبر عنها هيجل حين قال: إن التاريخ هو تعاقب للحضارات حتى بلغ المسار غايته بظهور حضارة بروسيا. وإن ظهور بروسيا محور أوروبا هو بداية الخلاص للعالم أجمع. وبناء على هذه الرؤية قال المؤرخون الأوروبيون إن أوروبا هي المركز وبذا بدأت نزعة المحورية الأوروبية من حيث هي القدرة ونموذج الحداثة، وغاية التقدم في تاريخ العالم.

وليس هناك ما يمنع من أن تفرخ جهود اليهود في مجال إعادة كتابة التاريخ والتعسف في تأويل وتحريك أحداثه مفكرين ينتصرون للنزعة السامية ولدور اليهود في التاريخ ومناقضة كل الدراسات التاريخية المناوئة ومنها، بل وأولها التاريخ المصري القديم، لتكون إسرائيل أو عودة اليهود إلى الهيمنة على منطقة الشرق الأوسط عودة لملك سليمان وبذا تكتمل دائرة التاريخ ويجرى استثمار الأسطورة لدعم هيمنة معاصرة ... وهذه هي محصلة دراسات فلايكوفسكى وشركائه وإن لم يقولوا إن إسرائيل نهاية وغاية التاريخ بل قالوا هي بداية جديدة تصحيحية.

وسوف تقدم إسرائيل نفسها من خلال نشاطها عبر الساحة العالمية ونشاطها الاقتصادي والإنتاجي والديمقراطي محليًا باعتبارها نموذج التحديث أمام العرب وأن الطريق إلى التقدم هو محاكاتها أو التماس الخبرة والمعرفة منها. ولنتذكر هنا حجج عديدين من المثقفين أنصار التطبيع الطليق والمسئولين العرب في الدعوة إلى معرفة الإسرائيليين وإلى التماس المعرفة والخبرة منهم دون الدعوة إلى أى جهود من جانبنا لتطوير الواقع في الداخل علميًا وسياسيًا واجتماعيًا.

ولنتذكر هنا أيضًا كلمات شيمون بيريز رئيس وزراء إسرائيل عقب اغتيال إسحق رابين إذ قال في حديث تليفزيوني «الملك الحقيقي في زماننا ليس المال بل المعرفة». وقال أيضًا «المعركة القادمة -في الشرق الأوسط طبعًا -لن تكون على الحدود أو الأرض بل ستكون معركة الهوية اليهودية والانتماء الثقافي».

محورية إسرائيلية:

وهذا النهج الإسرائيلي هو ذات النهج الذي اتبعته أوروبا مع بلدان الأطراف أو العالم الثالث منذ أن بدأت نشاطها التوسعي الاستعماري استجابة لمتطلبات تطورها الصناعي، ومن أسف أنها رؤية ابتلعناها وصدقناها... تحدثت أوروبا طويلًا عن حضارة مصر بعد أن عجزت عن إخفائها ومن ثم زيفت أسباب نشأتها انحيازًا للعنصرية الأرية والعقل الأبيض ثم اضطرت إلى الإفصاح عن أمجادها وتحايلت وراوغت وفقًا لأطماعها وأيديولوجيتها.

وتحدثت عن حضارات أخرى وأصبحت أوروبا وعاء المعرفة ومرجعها تعزيزًا للمحورية الأوروبية. ولكنها قالت نعم إنها حضارات ولكنها قديمة. عصور ذهبية مضت ... والجديد أفضل من القديم وأكثر تطورًا وارتقاء دون بيان الأسباب وكأن التخلف في «جبلتنا» وبهذا ليس أمامنا إلا أن نحاكي ... هذا أو أن نعيش أسرى الحنين إلى الماضي، أى الأصولية بالنسبة لهذه الحضارة أو تلك من الحضارات التي أدبرت مع الزمان ... والمحاكاة بشأن الأصولية كلاهما يجتثان كل طاقة إبداعية قائمة على الاستقلال الذاتي وأعمال العقل الناقد والتطور العلمي وهو ما يعنى أيضًا أن كل عمليات التفاعل داخل كيان الشرق أوسطية ستكون من خلال الصفوة دون الجماهير ولحساب هيمنة القطب الأكثر تطورًا مادام العقل النقدي لواقع بعض أطراف الكيان ظل غائبًا، وطالما أسباب الانتماء انتفت بفعل تزييف الوعى التاريخي وافتقاد مشروعات عمل إنتاجي ذات طبيعة قومية ومتكاملة العناصر واستراتيجية الاتجاه وهدفها الإنساني العام.

ستكون إسرائيل القوة الأعظم عسكريًا وعلميًا واقتصاديًا، وستكون عنصرية جديدة في التاريخ وفى الحياة المعاصرة. وسوف ينقسم الإقليم إلى إسرائيل ومن يمالئها أو يتبعها وما ليس إسرائيل وستكون إسرائيل فكرًا وعلمًا ومعلومات وتكنولوجيا وتاريخًا قوة فاعلة مهيمنة طالما ارتضت عناصر الكيان الأخرى لنفسها وضع القوى المنفعلة على نحو يقضى بها إلى التهميش الثقافي والعيش في أسار وعى تاريخي زائف دون جهد إيجابي تصحيحي.

وليس القصد هنا دعوة إلى أن تكون المواجهة الثقافية مع إسرائيل داخل إطار عقيدي وعلى أرضية التقليد وخارج العصر ذلك أن اقتصار المواجهة مع إسرائيل داخل هذا الاطار سوف تعنى تأكيد الأصولية والمنازعة الدينية وترسيخ النزعة التقليدية ومن ثم الابتعاد عن جوهر أسس التحديث الاجتماعي أي اطراد حالة التخلف الاجتماعي الذي قد يصل بنا، بحكم افتقاد الوسائل، إلى منازعة عسكرية ذلك أن الفكر التقليدي بحكم غربته عن العصر عاجز عن إفراز حداثة في مجالات أنشطة المجتمع المختلفة وعاجز تهيئة مناخ تحديثي وثقافة حداثية أي عاجز خلق إنسان حداثي قادر على

المواجهة الفكرية والانتماء إلى العصر، وهما عنصر قوة إسرائيل ودعامة بقائها ووجودها.

وإن الانتصار والمواجهة يستلزمان الخروج بالمعركة من ساحة التقليد وحدها إلى ساحة الحداثة والمعاصرة أيضًا.. أي إلى العلمانية. هنا تكون المعركة حقًا صراعًا حضاريًا، ويكون رصيدنا الاستراتيجي ماديًا وبشريًا وفكريًا وثقافيًا سندًا ودعامة لنا، وإن كانت إسرائيل أسبق من حيث الانتماء إلى العصر، وسوف تحرص على أن نبقى في إطار التقليد. ولن ننتصر إلا إذا أخذنا بالحداثة وبالعلمانية لتطوير مجتمعنا وثقافتنا.

تأويل اللعنة:

وغنى عن البيان أن المنازعة التقليدية ستكون موجهة ضد مصر.. التاريخ القديم والحضارة العريقة. واجتثاث جذور الحضارة المصرية إضعاف لمصر وللعرب أجمعين عن القدرة على المواجهة والتحدي وأخشى ما أخشاه أن تصطلح هنا رؤية بعض العرب ورؤية إسرائيل لأسباب تأويلية ضد هذا التاريخ.

ومن أسف أننا في البلدان العربية نسينا الحاضر، وتعلقت أبصارنا بماض زيفناه، أو قل تعددت واختلفت وتصارعت روايات تاريخه، واستوعبنا الماضي واستوعبنا الماضي حتى غاب عنا المستقبل أو أغفلناه..

والكلمة للسلطة في جميع الحالات، وهي سلطات عربية سيادة وفكرًا لا سلطة واحدة منذ أن نشأت.

ونشهد في مصر ومن العرب لوما بل ولعنات يصبها البعض على تاريخ مصر القديم تحديدًا، وهو موضوع المنازعة مع إسرائيل.. وتحولت لعنة التاريخ المصري إلى «حقيقة» اجتماعية شغالة أعني أسطورة تلبس ثوب الحقيقة وتؤتى تأثيرها الزائف، وتحكم الفكر والسلوك. وتعرقل وحدة الشخصية التاريخية المصرية في حركتها الدينامية، وفى تعددها المرحلي ولكن في اتساق يصنع وحدة تشكل قوة حافزة للحركة المجتمعية نحو المستقبل.

ولكن مصر في الصورة العربية والإسرائيلية لتاريخها القديم ملعونة لأنها ناصبت إسرائيل العداء يوما حسب رواية التوراة.

وأحسب أن إسرائيل سوف تعمد إلى الكشف عن أو افتعال كعب أخيل في الثقافة التاريخية التقليدية العربية لتنفذ منه وترسخ الشقاق العربي الأيديولوجي، وتؤجج أزمة فكر وثقافة مصرية عربية خلال المنازعة الثقافية ضد تاريخ مصر القديم والتي تصادف هوى تقليديا عند البعض.. الهجوم ضد تاريخ مصر في انحياز إلى تاريخ إسرائيل القديم والذي قد يصل إلى حد الاستشهاد بنصوص تقليدية عن حق عودة ملك النبي سليمان. ولم تفكر مصر

ممثلة في علمائها حديثا أن تجمع الحيثيات العلمية الصادقة والمتوفرة لكي تبرئ مصر وشعبها وتاريخها من دم اليهود ولعنة التاريخ مثلما برأ اليهود أنفسهم من دم المسيح.. ومن ثم تؤكد وحدة التاريخ المصري، وتعزز اتساق الشخصية المصرية، وتدعم الاتصال أو التواصل في الحركة إلى المستقبل بدلًا من العيش شعبا بغير جذور، مشلول الحركة.. يشعر بالعار كذبًا وزيفًا إزاء ماضيه وينعكس أثر ذلك كله سلبًا على الوعي التاريخي وعلى المنطقة العربية وتطورها الاجتماعي.

الهوية المصرية:

ومن عجب أن تكاتفت بعض القوى العربية ضد هذا التاريخ ومن أجل زعزعة جذور مصر ظنا أن هذا يبوئها مكانا قياديا، ويمنحها قوة على حساب مصر وتكاتف بعض المثقفين العرب وبينهم بعض المصريين من ذوي الاتجاه الأيديولوجي المعروف ضد هذا التاريخ وضد معالمه ورموزه الثقافية.. فكم من المقالات ضد جهود وزارة التربية لتخصيص حصص كافية لتعليم التاريخ المصري القديم في المدارس المصرية. وكم من دعوات ضد استخدام الشهور المصرية التي هي ثقافة الفلاح في زراعته.. وينادون بأن تاريخ مصر بدأ مع دخول العرب مصر وما قبل ذلك وثنية.

ولكن العالم ممثلًا في حضاراته المتعددة يراجع رؤاه الحضارية وأطره المعرفية، ويقدم لنا البراهين الدامغة والحجج الموضوعية التي تؤكد دور مصر الحضاري الريادي. ثم يكشف التزييف لحقائق التاريخ الصلبة.. إنها أذن جريمة متعمدة مع سبق الإصرار ارتكبها كل الغزاة الذين تعاقبوا على مصر إلى أن بدأت أول سلطة حاكمة مع ثورة 1952، وبات السؤال الملح متى تكتب مصر تاريخها بنفسها؟ متى نعيش في الحقيقة ومعها ونعمل من خلالها؟ فالغزاة هم الذين كتبوا تاريخنا فطمسوا الهوية المصرية وتعمدوا إخفاء دور مصر في دوائرها الحضارية الثلاث الأفريقية والعربية والمتوسطية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السادس

مستقبل الثقافة في ظل «الشرق أوسطية»

تسارع طوفان أحداث مسيرة السلام على الأصعدة المختلفة. والذي يعنينا هنا الصعيد الثقافي ونتاج ذلك سلوكيًا وفكريًا، المطلوب الآن على الساحة بإلحاح هو التطبيع. وهناك من ينادى بالولايات المتحدة الشرق أوسطية. معنى هذا أن المستقبل مفتوح الاحتمال تفاعل ثقافي مكثف قد تتغير معه عناصر المعادلة في المنطقة على نحو يفضى إلى تغير الرؤى والبنى الاجتماعية وهو ما يشكل تحديًا ثقافيًا يهز بعنف أطرًا موروثة راكدة ويستنفر الهمم التماسا لأطر جديدة تحافظ على الذاتية الوطنية والقومية، ترسم حدودًا لهذا التفاعل ويكون نابعًا من إرادتنا وموجهًا لمصلحتنا وليس مفروضًا علينا وفق رؤية غريبة عنا، حضارة وتاريخًا ومستقبلًا وأن تكون ركيزتنا: انفتاح فكرى لا انغلاق، وتفكير علمي لا أسطوري، وحشد للجهود بلا فردية وطنية أو تهويمات رومانسية قومية، وجرأة عقلانية محسوبة دون خوف يتغذى على شعور خفي مرضى بالدونية وتحديد لمصدر الخطر الحقيقي لا الظاهري.

الخطر في داخلنا في ثقافتنا والذي يعوق حركتنا ويشل إرادتنا ويجمد فكرنا والخطر الخارجي الذي يتعارض مع مستقبلنا. هل الخطر هو ثقافة إسرائيل وما هي ثقافتها على وجه الحقيقة التي نخشاها؟ ما هو البعد الحضاري مقارنًا بالأبعاد الحضارية العربية للبلدان العربية؟، هل نملك نظرية نقدية تحليلية مقارنة لثقافتنا وثقافة أطراف الساحة الشرق أوسطية؟، هل البعد الحضاري لإسرائيل إسرائيلي القومية أم أنه غربي فكرًا وتقنية. ومن ثم تكون القضية التي نواجهها هي ذات القضية القديمة التي واجهها دعاة النهضة والتنوير في مصر وفى الأقطار العربية حين وجهوا سؤالهم: لماذا تقدم الغرب وتخلف العرب؟ وهو ما يعني أن الثقافة العربية وما تعانيه لا تزال في حالة الصدمة القديمة والجمود القديم. أي أن حالة نقص المناعة عندنا مزمنة ولكن الآن في ظل الشرق أوسطية بات التحدي أو الخطر مجسدًا داخل عقر دارنا يستفز كل أسباب قصور المناعة وقد نلبس ثوبًا ثقافيًا تاريخيًا له تداعياته الحتمية.

ومعنى هذا ثانيًا أن الخطر الداهم الذي يواجهنا هو ثقافة عالمية بوجهيها. وجه حضارة عالمية جديدة طاغية بقوة اندفاعها ووجه آخر يمثل قوى سياسية عالمية مهيمنة اقتصاديًا ونفسيًا ومعرفيًا. ويتعين في حركتنا النهضوية أن نمايز بين الثقافتين في انحياز إلى الأولى على هدى مقتضيات دعم بناء ذاتنا الوطنية وتعزيز تطورنا. وهذا يعود بنا إلى السؤال القديم.. أي البحث عن

إجابة جديدة معاصرة على سؤال قديم: كيف نكون قوة ثقافية فاعلة نتفاعل على أساس من الكفاءة والندية مع الكيان الإسرائيلي؟

وسوف يلزم عند التطبيع مزيد من الوعي بالفوارق الثقافية من حيث التاريخ والقيم والعادات والمفاهيم والرؤى.... إلخ ما يعني نوعًا من الاحتكاك أو المنازعة التي تمضي وقائعها في أحد احتمالين:

(أ) انصهار حضاري له خصوصياته وشروطه في ضوء متطلبات العصر.

(ب) تأكيد التمايز على أساس من التكافؤ والكفاءة هذا أو التمايز والعزلة على أساس من الشعور بالدونية والتبعية والهرب من الواقع. ومن ثم التحول إلى صراع عنيف أو التلاشي الحضاري.

لن يكون الحديث في حالة التطبيع محوره القوة العسكرية بل الرصيد الاستراتيجي الداعم للمنازعات أو الصراع السلمي مجسدًا عند كل الأطراف في الوعي التاريخي والإبداعات المعلوماتية ومقتضيات ذلك من نظم ومؤسسات تعليمية وإعلامية وعلمية واقتصادية وسياسية. الخ أي المستوى الثقافي العلمي ومدى الاندماج في تياره العلمي.

الإجابة عن سؤال من نحن ومن هم تتباين إلى حد التضاد في ضوء الوعي بالتاريخ والوعي بالدور المعاصر. والسؤال سؤال ثقافي ومفروض بحكم تفاعل وتكافل الكيان الإقليمي. ولابد أن نملك إجابة عقلانية نقدية تأسيسًا على الوعي بالتاريخ والمقومات العلمية والمادية والإجابة واحدة سواء أكان الآخر هو إسرائيل أم العرب فالصراع في جميع الأحوال رهن المنعة الثقافية والعلمية والتكنولوجية تأكيدًا للذاتية القومية المتفاعلة المتطورة ضد أن يستوعبها الآخر.

عاملان أساسيان سوف يحكمان الحركة الوجودية بين مجتمعات المنطقة:

(أ) مبررات الهيمنة المادية، أي ما يملكه ويتميز به المجتمع من أسباب مادية علمية وتكنولوجية وطاقات فكرية تبرر حق الهيمنة.

(ب) نمط الوعي التاريخي وصورة الذات المنبثقة عنه فاختلاف الوعي التاريخي سيكون فاعلًا وحاسمًا في تحديد الذاتية القومية التاريخية وتحديد وحفز المنازعات لأن محوره صورة الذات وصورة الآخر، ومعنى الوجود والدور التاريخي للذات في الوجود وتملك إسرائيل بالفعل صياغة مناوئة للتاريخ. وأتوقع أن يكون التاريخ مجالًا لمنازعات ومحاولات طمس وتشويه وسوف يكون التاريخ المصري القديم. تحديدًا هدفًا تصطلح إزاءه جهود متباينة المصدر داخل المنطقة ولكن جمعتها المصلحة التي تحركها دوافع أيديولوجية تاريخية.

وقد يزعم البعض أننا في عصر العولمة. وسوف ينشأ بالأولى تكتل حضاري شرق أوسطي. وهذا القول يمثل دعوة إلى أن توسع بلدان المنطقة من قاعدتها الحضارية تاريخًا وواقعًا على أساس من التسامح الذي يسمح بإدماج وقبول قيم تعزز التعايش والتفاعل مع الحفاظ على ثوابت تدعم اتساق الشخصية القومية الطارئة.

أي أن يتحقق في التكتل الحضاري الطارئ ما لم يحدث بين الأقطار العربية. ولكننا نسأل هل حقا ستنشأ شخصية قومية شرق أوسطية ؟، وما هي مبرراتها التاريخية والواقعية الراهنة

التي تدعم وحدة الانتماء وتجانس الدور المستقبلي؟

إن قيام تكتل حضاري غير متجانس يعنى أن أحد أطراف هذا التكتل سيكون له ثقل نوعي متميزًا وهو الثقل الفاعل والمؤثر على حركة الأطراف حتى وإن كانت الأطراف أثقل وزنًا ماليًا وبشريًا ناهيك عن افتقارها إلى التجانس. معنى هذا أن الطرف ذا الثقل النوعي الأكبر بحكم ما يملكه من رؤية تاريخية متبلورة مهيأة للمنازعة وما يملكه من رصيد مادي وتكنولوجي، سيكون هو النواة المسيطرة التي تتجه منها حركة الخبرة والمعلومات إلى الأطراف. وسوف تقدم النواة نفسها إلى الأطراف باعتبارها المجتمع النموذج على طريق التحديث في الفكر والتطبيق وفى المؤسسات ونظام الحكم. وتفرض نفسها باعتبارها القوة الفاعلة المهيمنة على نحو يفضي إلى التهميش الثقافي. ويكفي أن نعرف أن إسرائيل مساهم عالمي في علوم أربعة تمثل أركان عصر المعلومات والسبق الحضاري وأعنى بها علوم الفضاء والهندسة الوراثية والمعلومات والاتصالات. وهذه علوم تمثل قمة النضج المرحلي للتطور العلمي وتأسيسها رهن شروط غير واردة في حياتنا العربية وتوافرها رهن تحولات جذرية شاملة في حياة الإنسان والمجتمع وكل أنشطة حياتنا.

إن محاولة اللحاق بركب الحضارة ضمانا للكفاءة والندية ستفرض حتمًا إعادة النظر في الرؤى الثقافية والقيم والمعتقدات التي هي عناصر أساسية للتفاعل الاجتماعي الإقليمي ولها أهمية حاسمة في تشكيل ديناميته. ومن المعروف أن الهيمنة تحقق تأثيرها عندما يفرض طرف على الآخرين وضعه كمصدر منتج للخبرة والمعلومات في أنشطة الحياة المعاصرة التي تمتد لتغطى جوانب الحياة التقليدية وتنازعها حق البقاء.

ووجود هذه النواة المهيمنة في حالة عدم التجانس العربي، فضلًا عن التخلف، من شأنه تفجير التناقضات الثانوية وزيادة التناحر الطرفي، الأمر الذي يدعم هيمنة النواة ويرسخ حالة التهميش ستكون الثقافة هنا إفرازًا لواقع تاريخي

ولحالة راهنة ومن ثم تعبيرًا عن علاقات قوى صانعة للسلطة وتتحقق مقولة ميشيل فوكو، إن الثقافة هي تكنولوجيا السلطة والهيمنة.

وحري بنا أن نتأمل وثيقة مشروع الشرق أوسطية إذ تقرر أنه أصبح من اللازم وصولًا إلى المشروع الإقليمي إعادة تشكيل الإطار المعرفي للعقل العربي وفرض مفاهيم جديدة بشان الأصدقاء والأعداء ومعنى الرخاء. مطلوب تغيير الوجدان العربي بإعادة تشكيل الماضي وإعادة صياغة هوية الإنسان العربي إلى هوية إنسان شرق أوسطي ومرة أخرى مصر هي المستهدفة تاريخًا وحاضرًا. لقد دخلنا حقبة السلام التي سوف تفضي على الصعيد الثقافي إلى تغير العلاقات المكونة للواقع كما تغير هوية الأطراف التي لا تملك أسباب المنعة المتمثلة في وعي تاريخي عقلاني نقدي يشكل رؤية شاملة كل المجتمع. وأسباب مادية ومؤسساتية وفكرية عصرية للانتصار وللعطاء الحضاري. أعنى أن الثوابت التاريخية التقليدية باتت أمام محك تاريخي، وأن الواقع يفرض بإلحاح مواجهة خطر حاسم إما أن نكون قوة حضارية عصرية ومصدرًا للعطاء أو أن تكون محمية طبيعية يرتادها أبناء العالم الأول للدراسة الانتروبولوجية حتى وإن غمرتنا فرحة اللهو بإنجازات وسلع العالم الأول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السابع

مصر مهد الفكر الفلسفي

ثمة كتابات عديدة تشكل قوى فكرية حقيقية عميقة الأثر ظهرت على مدى السنوات الخمسين الأخيرة، وهي حقبة انحسار الهيمنة الأوروبية، وحقبة التحرر من ربقة الاستعمار، واستقلال دول شرق آسيا وأفريقيا..، ومحاولة شعوب هذه المنطقة أن تستعيد ذاكرتها التاريخية، وأن تعيد صياغة وعيها ونظرتها إلى الحياة، بناء على حقائق موضوعية، وفى ضوء مناهج بحث جديدة، وقد طرحت جانبًا كل مظاهر الزيف لتؤكد هويتها أو ذاتيتها الحضارية ممثلة في إسهاماتها على مدى حقبة من حقب التاريخ وتلتمس في هذا قوة دفع أصيلة في خطوها نحو المستقبل. صدرت كتابات تكشف في مجال نقد العقل لذاته دور الهيمنة الأوروبية الثقافية في تزييف الوعى بالتاريخ، واصطناع أساطير تصوغ عقول شعوب المستعمرات، ولم يكن دور أوروبا إزاء مصر سوى حلقة من حلقات غزو متعاقبة ضد مصر. وكل المجتمعات الغازية سعت إلى استيعاب الآخر هدفًا نهائيًا لها عن طريق تدمير وعيه التاريخي، وإعادة صياغة هذا الوعي وفق أسطورة مختلفة تكفل اطراد الهيمنة.

من هذه الدراسات كتابات مثل كتاب: «الأصول الزنجية للحضارة المصرية» تأليف «شيخ أنتي ديوب»(([8])) وأيضًا كتاب «التراث المسروق... الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة».

تأليف جورج جيمس(([9])). والكتابان هما الإرهاصة الأولى للدراسات النقدية، التي توالت تدحض مزاعم تفرد الحضارة الغربية، وتؤكد شمال أفريقيا، أو دور مصر كرد فعل رافض لمحاولات تزييف التاريخ. والصفة المشتركة بين الكتابين المذكورين أن مؤلفيهما من أصول سوداء أي أفارقة.

الكتاب الأول مؤلفه مفكر وعالم سنغالي، ناضل بفكره من أجل استقلال بلاده، وتأكيد الذاتية الأفريقية، ونفى جميع الصفات التي حاول الأوروبي إلصاقها بكل أفريقيا وشعوبها، فهي في نظر الرجل الأبيض القارة السوداء المظلمة، وتاريخها أشد اظلامًا، وشعوبها سقط متاع، أهل للتجارة والاستعباد. والكتاب الثاني مؤلفه كاتب أمريكي أسود، يحمل هموم السود في أمريكا ومعاناتهم من أثر التفرقة، والحط من شأنهم حاضرًا وماضيًا. وقد ظهر الكتابان في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين 1952 و1954 على الترتيب، أي مع مستهل الحركة العالمية للتحرر الوطني ونهضة المستضعفين من الأمم، واستعادة الوعي بالذات القومية في أفريقيا وآسيا شرقًا وغربًا، بل

والسود في أمريكا. واتجهت هذه البلدان جميعها إلى البحث عن تاريخها الشفاهي والمسطور وانعقدت مؤتمرات إقليمية ودولية لهذا السبب.

كانت القضية أمام شعوب أفريقيا هي: هل حقًا لم تسهم شعوب أفريقيا في الحضارة الإنسانية التي يتربع على قمتها الآن الرجل الأبيض؟ أم أن ما نشاهده هو دورة ومرحلة في تاريخ تطور الحضارات المتعددة الأصول والمنابع والمسارات والحوارات بكل ما انطوت عليه هذه المسارات من صراعات أخذت أحيانًا صورة حروب وحشية ومحاولة إلغاء وإفناء الآخر، وأحيانًا أخرى صورة تفاعلات أسهمت في اطراد الارتقاء الحضاري للإنسانية جمعاء؟

ومن هنا جَدَّ الأفارقة السود المغتربون في أوروبا، ومواطنو أمريكا، ناهيك عن جهود الأمم الأفريقية ذاتها، لاستعادة ذاكرتهم التاريخية واستكشاف روابطهم الحضارية ضمن جهودهم لتأكيد هويتهم. لهذا لم يكن غريبًا أن يتحدث «أنتي ديوب» عن علاقات مصر القديمة، مهد الحضارات، بالشعوب الأفريقية المحيطة بوادي النيل، وأن يلتمس أسباب ومظاهر القرابة. وعمد في سياق هذا إلى إبراز جوانب الحضارة المصرية وإلى تفنيد أباطيل الرجل الأبيض.

ولم يكن مستغربًا أيضًا أن نرى «جورج جيمس» الأفريقي الأصل، صاحب كتاب «التراث المسروق» يدعى الانتساب إلى حضارة مصر، أو أن يرى الحضارة المصرية رمزًا أفريقيًا.

ولكن الشيء الهام، والذي يعنينا هنا انه ضرب بمعول قوى أسطورة أوروبية غرسها الرجل الأبيض في الأذهان وصدقناه، وأضحت إحدى مسلمات حياتنا الفكرية. ونعنى بذلك أسطورة أن بلاد الإغريق هي مهد الفكر الفلسفي.

أكد «جورج جيمس» على الرغم مما يشوب نهجه من حماس واندفاع، أو نزق لا يؤثر على جوهر القضية، أن الفلسفة اليونانية القديمة مستمدة أصلًا من الفكر الفلسفي المصري القديم. وأوضح حقيقة، أكدها «مارتن برنال» ودعمها بوثائق ودلائل جديدة يضمها المجلد الثالث من كتاب «أثينا السوداء» عن الفلسفة والعقائد، وهى اعتراف اليونانيين القدماء أنفسهم بأنهم تتلمذوا على أيدي الكهنة، أي العلماء المصريين، إذ لم يكن هؤلاء الكهنة رجال دين اختصوا بأداء شعائر وطقوس، بل كانوا علماء، لهم تخصصات متباينة: دين وفلك وطبيعيات وهندسة ورياضيات وطب... الخ.

وقارن «جورج جيمس» في كتابه بين مبادئ الفكر الفلسفي المصري القديم، المتمثل في نظرة متكاملة إلى الكون من حيث النشأة الأولى ونواميس تطوره، وعلاقة الإنسان بالوجود والقيم النابعة من هذه النظرة الوجودية، وبين المبادئ الأولى للفكر الفلسفي عند فلاسفة الإغريق جميعًا كلًا على

حدة. وأوضح من خلال المقارنة التطابق بين عديد من العناصر الأساسية لفكر المدارس الفلسفية الإغريقية، وبين الفكر المصري القديم. وأكد أن الفكر المصري الفلسفي، أو فقه إلهيات ممفيس الذي سجلته لوحة محفوظة في المتحف البريطاني هو الأول والأكثر شمولًا، والأوسع مجالًا، والأسبق عهدًا ومن ثم فهو المنهل والمصدر، واستشهد، علاوة على هذه القرائن، بشهادات قدامى الإغريق من مؤرخين وفلاسفة، بأنهم تتلمذوا في مصر. وإذا كان الاعتراف سيد الأدلة، فإن فلاسفة الإغريق القدامى من طاليس، وفيثاغورس، وحتى أفلاطون، اعترفوا برحلاتهم لطلب العلم من مصر، وأن منهم من أجريت له طقوس الالتحاق بنظام الأسرار المصري الخاص بتلقي العلم، واختيار المبتدئين أو المريدين. وأضاف إلى هذا شهادات المؤرخين اليونانيين القدماء من أمثال هيرودوت، وبلوتارك، وغيرهما. ونذكر هنا، كمثال، رواية أو شهادة بلوتارك، التي تدعم رأى جورج جيمس، وتسخر ممن انتقده وأنكر عليه علمه بمبادئ التاريخ المصري. يقول بلوتارك عن فيثاغورس «إنه أخذ العلم الذي أكسبه صفة العالمية بوجه عام عن كهان طيبة ومنف، وبلغ فيثاغورس من ذلك حدا جعله يؤدى في التعليم الخاص به وسائل رمزية وسرية كانت فيما يبدو مما اعتاد عليه الكهان، (بلوتارك - إيزيس وأوزيريس - عن كتاب كهان مصر القديمة).

ولكنه علاوة على ذلك أبرز حقيقة تاريخية هامة جدير بنا آن ندرس تداعياتها، وهي دور الغزاة الذين دفعتهم أطماعهم وصراعاتهم الإقليمية إلى احتلال مصر، واغتنام أو اغتصاب ثرواتها المادية والعلمية وأيضًا قتل أسباب المنعة والقوة العسكرية والثقافية. وأشار في هذا الصدد إلى المراسيم التي أصدرها أباطرة الرومان أثناء احتلالهم مصر، من ذلك مرسوم أصدره الإمبراطور «ثيودوسيوس» في القرن الرابع الميلادي، ومرسوم آخر مكمل له، أصدره الإمبراطور «جوستنيان» في القرن السادس الميلادي، ويقضى المرسومان بإغلاق نظم الأسرار المصرية، أي إلغاء المعابد المصرية باعتبارها مؤسسات علم سرى مقدس للخاصة دون العامة وذلك بعد أن تم نهب كنوزها من أحجار ثمينة وكتب علمية.

وإن ما فعله الرومان فعله اليونانيون والفرس الغزاة من قبلهم، وهو دأب الغزاة دائمًا. وكان معنى هذا تدمير مؤسسة صناعة الثقافة في مصر. وجاء التجريم باسم القانون مبررًا شرعيًا للتجريد والاغتصاب، بعد تعطيل مقومات النشاط المعرفي المجتمعي المصري. وكانت هذه هي المقدمة المنطقية التي مهدت السبيل لعمليات الانتحال، وادعاء الفضل العلمي لغير أهله، ولكي يزعم الزاعمون أن الفكر الفلسفي ظهر في اليونان فجأة في صورة معجزة تحار في تبريرها العقول، وأعقب التجريم تحريم الثقافة المصرية القديمة جملة وتفصيلًا (([10])).

دحض «جورج جيمس» أسطورة تحكمت في نظرتنا، روج لها الرجل الأبيض، وكشف عن وجه التناقض، كمثال بين اعتراف طاليس بزيارته مصر، وتلقيه العلم على أيدي كهنتها، وبين الزعم الأوروبي في العصر الحديث بأن طاليس أحضر إلى مصر علم الهندسة وأنه علم المصريين قياس الأبعاد الهندسية للأهرامات وقياس ارتفاعها، وأنه أحدث تطبيقات جديدة للتقنيات المصرية في قياس الأرض، وعرف كيف يقدم البراهين التي عجز عنها المصريون بناة الأهرامات. وجاء هذا استطرادًا للأسطورة التي اختلقها العقل الغربي في القرن 19 كما يقول «مارتن برنال»، تأكيدًا لتميزه وتفوقه. ومن عجب أن راجت هذه الأسطورة باسم الأكاديمية في العلم؛ إلى أن بدأ النصف الثاني من القرن العشرين. كان النصف الثاني من القرن العشرين هو الحقبة التي اصطلحت وتوالت فيها جهود أوروبية، وغير أوروبية، لتحطم أسطورة الرجل الأبيض المعجزة صاحب العقل المتفرد والسلالة المتميزة، وخلال هذه الحقبة ذاتها تكثفت جهود الباحثين الإسرائيليين لاغتصاب تاريخ مصر، وعمدوا إلى نشر كتاباتهم باسم الأكاديمية في الجامعات العالمية ليصوغوا إطارًا فكريًا جديدًا وأسطورة قديمة تقول: إنهم هم بناة حضارة وادي النيل.

ونحن لن نستعيد وعينا التاريخي الصادق إلا بفضل جهودنا نحن التي يبذلها علماء مصر بالأصالة، والنابعة من جهدنا الهادف إلى فضح الأسطورة التي صنعت غمامة، طمست الفكر، وحجبت الحقيقة وأعاقت حركتنا الوطنية المتكاملة في صراعنا على طريق النهوض، صراع يدعمه الوعي العقلاني النقدي، ويغرس الذاتية التاريخية الموحدة، ويؤكد الإسهام المصري الرائد في بناء الحضارة، وبذا نواجه تحديًا ظالمًا ومغرضًا افتعل قطيعة مع تاريخنا الباكر لأسباب متباينة وزائفة.

إن الذاتية الاجتماعية لكي تحتفظ بسويتها وبقدرتها على الفعل هي في أحد وجهيها امتداد تاريخي متباين الصفحات تجمعها جديلة واحدة متكاملة؛ وهي في الوجه الآخر قدرة إيجابية على مواجهة تحديات العصر، كل عصر، ومقاومة أسباب التحلل والفناء دفاعًا عن حق البقاء والارتقاء فليس بالتاريخ وحده يحيا المجتمع، وأيضًا بدونه يسود عرض اختلال الأنا الاجتماعية، ويغدو الوجود الاجتماعي عبثًا وعبئًا صخب ولا طحين، وفعل جهيض لذا نقول ونحن نلتمس التاريخ الحقيقة، ونصارع ضد الأسطورة، إن مصر، هي الطرف الغائب في معادلة تاريخ تطور وصراع الحضارات ليست طرف المعادلة المجهول بل الغائب أو المغيب،، وحرى بأبنائها أن يدرسوا «سوسيولوجيا» التخلف الاجتماعي، والتزييف التاريخي، وما صنعته الأسطورة سواء أسطورة الغرب أو الأسطورة اليهودية منذ عهدها القديم... أعنى كيف جرى توظيف هذه الأسطورة أو تلك في حياتنا، وفى وعينا لصالح الطرف النقيض، وأثر ذلك في وحدة الشخصية الاجتماعية، وفى إنتاج المعرفة كنشاط مجتمعي؟ وكيف

صاغت أحداث التاريخ وأقنعة الأيديولوجيا، والظروف الاجتماعية، أو بعبارة أخرى كيف صاغت عمليات التزييف الروحي والنهب المادي، والواقع المأساوي استجابات الإنسان المصري؟ وكيف انعكس هذا التزييف في حقيقة الانتماء للتاريخ، والوعي بالتاريخ، ووحدة التاريخ، والمواطنة بحيث كان حصاد القرون ما نراه اليوم؟

وحين يدخل الماضي المؤسس على حس تاريخي صادق مجال الوعي العقلاني النقدي، فإنه يحرك فينا نوازع الفعل والفكر وإنتاج. الوجود، ومواجهة التحديات، ذلك لأن الماضي بدون وعي به هو الغريزة، وحين تنتفي غربتنا في الزمان، وغربتنا عن العصر، يغدو وجودنا مشروعًا إراديا حرًا.

ومن هنا أرى أن مثل هذا الطراز من الكتب يلقى على عاتقنا واجبات مجتمعية الطابع، لا فردية التكوين والجهد... واجبات التعليم والتثقيف والتنشئة... وإعادة كتابة التاريخ من خلال موقف مصري، ورؤية نقدية للماضي، ونظرة تستشرف المستقبل. أن نفكر عبر الحقيقة، فإن معرفة الحقيقة، كما يقول جورج جيمس، التي تجعلنا أحرارًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثامن

ما معنى أن يفقد مجتمع لغة الأم ويبدلها بلغة الغازي المحتل

الإنسان / المجتمع / اللغة / الفعل / الفكر / الثقافة / الحضارة / الهوية / التاريخ ..... هذه جميعًا مترادفات متطابقات متلازمات حتى وإن اتخذنا لكل منها موضوعًا ودلالة ودراسة خاصة مميزة.

إنها جميعًا أوجه الحياة التي صاغتنا بشرًا على مدى التطور الصاعد حيث كل عنصر منها يسلم إلى، ويسلزم معه العناصر الأخرى جميعها في مركب متكامل واحد موحد الدلالة والمعنى. إذا انعدم أحدها انعدمت جميع العناصر معًا .... إذا انعدم الفعل انعدم الفكر وتعطلت اللغة، وجمدت الهوية وامتنع التاريخ، وانتفى المجتمع، ولا حديث عن هوية ... وهكذا لا مجتمع به وفي لغة أو تاريخ ... وتاريخية الفعل هي عينة تاريخية الفكر والهوية.

ويمكن القول إن اللغة هي واسطة المعتد، ورابطة الوصل بين عناصر المجموعة، فهي ضامنة التواصل والفهم، ومجلي التاريخ التطوري لكل منها.

اللغة مشاطرة في أفكار، ومشاركة في التعبير عن صورة الإنسان والمجتمع والوجود الماضي والحاضر والمستقبل ... واللغة أداة فهم وتفاهم متبادل ومميز لمجتمع دون آخر، وطبعي أنه بدون شكل من أشكال اللغة (الكلام المنطوق أو المكتوب أو الإشارة .... الخ) تصعب المشاركة المجتمعية في أداة طقوس أو عبارات أو إنجاز عمل مشترك، أو تأسيس نظام مجمتمعي متماسك. وكذا يستحيل التواصل والوحدة أو التوحد سياسيًا، علاوة على انعدام الأنشطة المشتركة الاقتصادية أو التعليمية والوجدان المشترك، والمنعة المجتمعية.

نحن نفهم الظواهر والأشياء، ونفهم أنفسنا، ونتفاهم مع الآخرين من خلال عملية تأويل وتفسير وفهم نعبر عنه باللغة. لذلك فإن ثراء اللغة يعني ثراء الوجود المعيشي في وحدة التاريخ. ولهذا تتداخل الثقافة والهوية واللغة في تعبيراتنا. وتمثل وحدة اللغة على الصعيد المجتمعي تاريخيًا ضمانة لوحدة الوطن والأمن القومي، على عكس الحال في ظل التعددية القبلية وتعدد اللغات إذ يصعب الحديث عن ولاء قومي أو هوية قومية والذي هو وحدة تاريخ، ووحدة وطن، ووحدة مصير.

أجدادنا يحدثوننا بلغة الأم عن العالم حولنا في الأمان القديم، وعن من نحن، ومِن أين جئنا، ويمنحوننا إحساس الكبرياء وأسبابه، وإحساس الخجل والعار

وأسبابهما... وعن القيم الأخلاقية وجذورنا، وحس بالاتصال التاريخي للأجيال، وحكمة المجتمع التي هي حصاد جهده التاريخي في التعامل مع نفسه والآخرين والطبيعة. ويظل هذا كله، وبفضل لغة الأم، صورة متصلة وممتدة مع مشاركة وجدانية فاعلة، وتظل حية يفضل حياة اللغة الأم. ولكن من أن تموت اللغة حتى تندثر الحكمة والمعارف المجتمعية معها، بل ويذوي الإحساس بالأنا والنحن.

اندثار اللغة: المظاهر والأسباب

الحياة الوجودية للغة شأن أي كائن حي، رهن ظروف تاريخية اجتماعية من حيث التكوين والنشوء والتطور. وقد تمثل هذه الظروف واقعًا حافزًا للتجديد والتكيف في إطار المنافسة والصراع لإثبات الأجدى والأنفع والأقدر على المواجهة والبقاء إزاء التحديات الحضارية المختلفة بحيث تبقى اللغة الملاذ اللازم للتعبير، وتعزيز لحمة البنية المجتمعية.

وهنا تشارك عوامل عددة في عملية الصراع والتحدي منها ما هو داخلي ومنها ما هو خارجي. وطبيعي أن المجتمع لا يفقد لغته فجأة بين يوم وليلة، ولكن على مدى طويل من الصراع والإزاحة والمنافسة الإيوال والإحلال، أو كما هو الحال في حالة الغزو الأجنبي، استمرارية قوى الاحتلال وتعاقبها وتعددها كما حدث في مصر، فضلًا عما في استعمال اللغة الوافدة من عوامل جذب ومنفعة أو قربى من حيث السلالة اللغوية.

وتتنوع العوامل المحلية ما بين كوارث طبيعية تفضي إلى إبادة شاملة، أو بسبب الجمود المجتمعي، جمود الفعل والفكر عند ثوابت السلف.

ويتأكد هنا قصور اللغة عن الوفاء بحركة الفعل والفكر المجتمعيين الأمر الذي يفضي إلى ضمورها وعجزها عن مواكبة التطور الحضاري.

وجدير بالملاحظة أن الضغوط الداخلية ليست سلبية بالضرورة، إذ قد تمثل قوة دفع إيجابية ناجحة عن دخول المجتمع، بحكم قواه الفاعلية الواعية دورة تطور حضاري، ارتقائي جديد يفضي بالضرورة إلى طور حضاري لغوي جديد، أعني ثراء لغويًا. وتجري هنا عملية انتخاب ثقافي لغوي والبقاء للأصلح.

وحرى أن نؤكد أن من أهم العوامل الحازة للتطور الحضاري اللغوي حالة منعة المجتمع حالة مواجهة تحد لغوي لمجتمعات أجنبية. إذ حين تكون المنعة المجتمعية ضعيفة لمجتمع مستسلم لقدرية التحديات، ويؤثر السلامة على المقاومة فإنه يتخلى عن لغة الأم لضعفه في الحقيقة. ذلك لأن الحس الطبيعي أن المجتمع يرى لغة الأم هي ذاته، ودفاعه عن لغته دفاعًا عن ذاته، وقد تتفاقم المأساة إذا فرضت لغة المحتل نفسها باسم المقدس.

نتائج كارثية

الثقافة / المعرفة ملتحمة بقوة باللغة مكتوبة أو شفاهية. وتعكس كل لغة نظرة فريدة ومميزة عن العالم بما في ذلك منظومة القيم والقسمات الثقافية. لذلك فإن اندثار اللغة، وإبدالها، يعني اندثار تاريخ وثقافة أجيال، وضياع إرث شعبي كامل. وفقدان اللغة الأم يعني فقدان الحلقة الرابطة بالماضي، وفقدان حس الناس / المجتمع سابقًا / بالهوية وبالانتماء مما يؤدي إلى استئصال الحس الجمعي. وتسود حالة من الأنوميا anomie أي الاهتراء الثقافي وفقدان المعايير والثقة في الآخر ويتحول إلى ما يمكن أن نسميه تجمعًا سكنيًا، وردة غرائزية.

ومن هنا نقول الخطر كل الخطر حين يقع المجتمع فريسة، لأي من أسباب الضعف، فريسة لاحتلال استيطاني غير قانع بنهب ثروات المجتمع بل يسعى عن عمد إلى تدمير ثقافته وانسلاخه عن ذاته وتعطيل كل أسباب كبريائه ومحو تاريخه ليكون سهل الانقياد، عاجزًا عن المواجهة والتصدي لأطماع الغازي.

ويعمد، في خطته هذه، إلى تدمير لغته بمعنى فرض حاجز خرساني بين ماضيه وحاضره مما ييسر للمحتل التحكم في توجيه مسار الضحية وفق أطماعه وبظن أفراد المجتمع أنهم إنما يحققون ما يريدونه هم.

ويؤدي الواقع المأساوي الجديد إلى العجز عن استعادة المعارف الثقافية الفريدة التي جسدتها اللغة الأم على مدى آلاف السنين بما في ذلك المعارف الروحية والتاريخية والإيكولوجية وهي معارف لازمة لإطراد وجود المجتمع متمثلًا في أبنائه. مثال ذلك في مصر المعارف الخاصة بالمواسم الزراعية والأمطار وكيفية التنبؤ وخواص علاجية وغذائية مميزة للنباتات والأعشاب. وهنا نجد الفلاح المصري احتفظ لوجه الضرورة بشهور السنة المصرية لضبط التعامل مع البيئة الزراعية واحتفظ بالشهور القمرية الوافدة للمواسم الدينية. ولكن من أسف يقف المصري صامتًا مبهورًا أمام إنجازات حضارته القديمة وسر كبريائه يشعر برهبة الإعجاز دون الفهم وقد اغترب عن ذاته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

<u>Group Link – لينك الانضمام الى الجروب</u>

<u>Link – لينك القنـــــاة</u>

فهرس المحتويات

Notes

[←1]

Sir Thomas Heath, Greek Mathematics Oxford 1921 volt. () (1) .Intr

[←2]

(2) () هذه ترجمة لمقال كتبه مارتن برنال أوجز فيه مضمون أطروحته في المجلدات الثلاث لكتابه ونشرها في إحدى المجلات وقدم لي صورتها دون المجلة ولذلك لم أذكر اسمها.

[←3]

(3) () هيزنج شليمان 1890 -1822 Schlieman- عالم آثار ألماني اشتهر بحفرياته في مواقع في طروادة وميسينا.

[←4]

(4) () يشير الكاتب هنا إلى قضية الرائد الفريد دريفوس Dreyfus 1935 -1859)) وهو ضابط فرنسي يهودي من أركان حرب الجيش الفرنسي اتهم بالخيانة وحكم عليه بالسجن ثم ثبتت براءته وأن التهمة دافعها العداء للسامية وأثارت ضجة كبرى (المترجم).

[←5]

(5) () أور أو تل المقيَّر جنوب العراق أو ما بين النهرين من عواصم السومريين في الألف الثالث ق.م. –المنجد– المترجم م.

[6←]

(6) () أتوجه بالشكر للأستاذ/ ماهر فؤاد الذي استعنت به لترجمة وكتابة الكلمات المصرية القديمة (المترجم).

[←7]

(7) () هذا ما قاله جورج جيمس في كتابه «التراث المسروق – الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية». ولكن اعترف بعض النقاد ظنًا أن الكلمة يونانية ولم يعرفها المصريون (المترجم).

[8←]

(8) () شيخ أنتي ديوب: «الأصول الزنجية للحضارة المصرية» ترجمة حليم طوسون صادر عن البعثة الفرنسية في مصر عام 1994.

[9←]

(9) () ترجمة شوقي جلال - صادر عن المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة 1996.

[←10]

(10) () يمكن للقارئ الفاضل أن يطلع على مؤلفات د. مصطفى النشار أستاذ الفلسفة القديمة بجامعة القاهرة والتي تؤكد الأصول المصرية للفكر الفلسفي اليوناني وأن يطلع على كتاب «كهان مصر القديمة» تأليف سيرج سويترون وترجمة زينب الكردي ومراجعة د. أحمد بدوي عن نظام الأسرار المصري أو الكهان في مصر في مصر القديمة. وغير ذلك من دراسات تؤكد خطأ من ساورهم الشك في القيمة العلمية للقضية الجوهرية التي طرحها هذا الكتاب، وراعهم أو صدمهم مثل هذا الرأي الجريء وحالت عقدة الدونية المتأصلة في الأعماق بفعل الغزاة دون تصديق أن الحضارات الكبرى التي أنتجت آثارًا مادية عظيمة، لابد وأنها أنتجت معها وبالتلازم فكرًا عظيمًا حتى وإن لم يصل إلينا ولم نتواصل معه، وأنها بفضل ذلك كانت قوة جذب وتأثير على الصعيد الإقليمي.